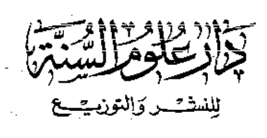
نظرات شرعية

في

ديوان المتنبي

بقلم

سليمان بن صالح الخراشي



نظرات شرعية
في
ديوان المتنبي

ⓒ دار علوم السنة للنشر والتوزيع، ١٤٢١ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الخراشي، سليمان صالح.
نظرات شرعية في ديوان المتنبي - الرياض.
٢١٠ ص، ١٧ × ٢٤ سم.
ردمك: ٢ - ٠ - ٩٣١١ - ٩٩٦٠
١ - الشعر العربي - نقد ٢ - الإسلام و الشعر ٣ - المتنبي، أحمد بن الحسين، ت ٣٥٤ هـ أ - العنوان
ديوي ٨١١،٥٠٠٩ ٢١/٣٠٤٧

رقم الإيداع: ٢١/٣٠٤٧
ردمك: ٢ - ٠ - ٩٣١١ - ٩٩٦٠

الطبعة الأولى

١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م



المملكة العربية السعودية
الرياض - هاتف وفاكس: ٤١٤٠٠١٩ - ص ب: ٥١٠٩٠ - الرمز البريدي: ١١٥٤٣



مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾(١).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾(٢).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾(٣).

أما بعد: فهذه رسالة نقدية وفق منهج أهل السنة خصصتها

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٠٢.

(٢) سورة النساء، الآية: ١

(٣) سورة الأحزاب، الآيتان: ٧١، ٧٢.

لديوان من قيل فيه «شاعر الزمان»[١] أبا الطيب المتنبي، الذي ملأ الدنيا، وشَغَل الناس، في حياته وبعد موته، وهو ـ كما يقول ـ قد نام ملء جفونه! عن كل هذا الخصام المتجدد حوله: في نسبه، وفي لقبه، وفي والديه، وفي مذهبه الديني والسياسي، وأخيراً في شعره، وكل هذا إن كان يهم دارس الأدب ودارس التاريخ فهو لا يهمني في بحثي هذا، وإن كنتُ قد ألممتُ به عَرَضاً ـ كما سيأتي ـ

أقول هذا مقدمةً لرسالتي هذه؛ لكي يعلم القارئ أن هدفي منها ليس هو بحث نسب المتنبي، أو لقبه، أو معرفة أكان من القرامطة أم من غيرهم، إلى غير ذلك من المباحث التي أكثر الخوض فيها جماعةٌ من المتقدمين والمتأخرين، وتشعبت بهم الآراء والترجيحات، وكلُ رأيٍ موثّقٍ بأدلة وقرائن ليست مما يَسْهل دفعه.

إنما بحثي هذا مُخَصص لإلقاء نظرة (شرعية) على شعر

---

(١) قال هذا عنه الإمامُ الذهبي في سير أعلام النبلاء (٦/ ١٩٩). وقال أيضاً: «كان من أذكياء العالم. بلغ الذروة في النَظْم، وأربى على المتقدمين، وسار ديوانه في الآفاق» وقال الحافظ ابن حجر في ترجمته في «لسان الميزان» (١/ ١٥٩): «نظم الشعر حتى بلغ الغاية، إلى أن فاق أهل عصره».

المتنبي من خلال سرد ديوانه؛ ليتبين لقارئه ـ في زماننا وفي القادم من الأيام ـ ما أجاد فيه الشاعر من معانٍ وألفاظ وافقت الشرع، أو نصرت دين الله، فيستفاد منها ويُكثر من الاستشهاد بها لعلها تذيع وتنتشر؛ نظراً لصدورها من شاعر فحل كالمتنبي.

ويظهر ـ أيضاً ـ مافي شعره من أبيات مُخِلّةٍ بالعقيدة، أو مجانبةٍ للصواب، فيحذرها القارئ، ويُحذر منها أو سلوك مسلكها، ويتجنب ترديدها والترنم بها في كتاباته أو أقواله؛ لكي لا يشارك صاحبها في الإثم عندما يوطِّن قلبه ولسانه وقلمه على الرضى بها.

أسأل الله أن ينفع بهذه الرسالة، وأن يتقبلها مني مشاركة في تصفية تراثنا على ضوء الكتاب والسنة، وأن تكون محرضاً لطلاب العلم على المساهمة في مثل هذه الدراسات التي يحتاجها أفراد أمتنا لكي يكونوا على بينة من أمرهم. والله الموفق للخير.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.



لمحـــة عـــن المتنـــبي

اسمه ـ مولده ـ كنيته ـ لقبه ـ نسبه ـ حياته



لمحة عن المتنبي[1]

أما اسمه: فهو أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبدالصمد الجُعْفِي، الكندي، الكوفي، من بني جعفر بن سعد العشيرة بن مَذْحِج من كهلان من قحطان من عرب الجنوب اليمنيين.

وكانت ولادته في حي بني كندة في الكوفة سنة (٣٠٣هـ - ٩١٥م).

وقضى في ربوعها سني حياته الأولى وهو يتردد فيها على محال الوراقين - وهم أشبه بمكتبات اليوم - يجمع العلم من أوراقهم بعد أن تعلم القراءة والكتابة في كُتّاب للعلويين، وخصوصاً أن الكوفة كانت تزاحم البصرة علماً وثقافة وأدباً في تلك الآونة من الزمن.

---

(١) الكتب المؤلفة عن حياة المتنبي لا تُحصى عدداً، انظر مجموعة منها في رسالة الدكتور عبدالله الجبوري: «أبو الطيب المتنبي في آثار الدارسين» وقد اعتمدتُ كثيراً في هذه اللمحة على كتاب الأستاذ محمد يوسف فرّان: «أبو الطيب المتنبي» ط - ١ - ١٤١١هـ دار الكتب العلمية بيروت. نظراً لحُسن ترتيبه وعرضه. مع التصرف.

أما كنيته: فأبو الطيب.

وأما لقبه بالمتنبي، فقد قيل فيه أمور كثيرة، فقد قال القاضي أبو الحسن الهاشمي عندما ذكر المتنبي: «كنت أعرف أباه بالكوفة، شيخاً يسمى عيدان يستقي[١] على بعير له، وكان جعفياً صحيح النسب. وقد كان المتنبي لما خرج إلى كلب وأقام فيهم ادعى أنه علوي حسني، ثم ادعى بعد ذلك النبوة، ثم عاد يدعي أنه علوي إلى أن أشهد عليه بالشام بالكذب بالدعوتين، وحُبِس دهراً طويلاً، وأشرف على القتل.. ثم استتيب وأشهد عليه بالتوبة وأُطلق»[٢]. ثم قال أبو علي بن أبي حامد: «سمعت خلقاً بحلب يحكون ـ وأبو الطيب بها إذ ذاك ـ أنه تنبأ في بادية السماوة ونواحيها إلى أن خرج إليه لؤلؤ أمير حمص من قبل الإخشيدية فقاتله وأنفره وشرد من كان اجتمع إليه من كلاب وكلب وغيرهما من قبائل العرب وحبسه في السجن حبساً طويلاً، فاعتل وكاد أن يتلف، حتى سئل في أمره فاستتابه وكتب عليه وثيقة أشهد عليه فيها ببطلان ماادعاه ورجوعه إلى الإسلام.. وأطلقه»[٣].

---

(١) يستقي: يبيع الناس الماء فسمي بالسقاء.
(٢) تاريخ بغداد (٤/ ١٠٣).
(٣) المصدر السابق (٤/ ١٠٤).

وقال أبو عبدالله مُعاذ بن اسماعيل اللاذقي: «قدم أبو الطيب اللاذقية في سنة نيف وعشرين وثلاثمائة وهو لما عذَّر[١] وله وفرة إلى شحمتي أذنيه فأكرمته وعظمته لما رأيته من فصاحته وحسن سمته. فلما تمكن الأنس بيني وبينه وخلوت معه في المنزل اغتناماً لمشاهدته واقتباساً من أدبه قلت: والله إنك لشاب خطير تصلح لمنادمة ملك كبير! فقال: ويحك أتدري ماتقول؟ أنا نبي مرسل! فظننت أنه يهزل.. فقلت له: ماتقول؟ فقال: أنا نبي مرسل.. قلت: تفعل ماذا؟ قال: أملأ الدنيا عدلاً كما مُلئت جوراً..» وقال التنوخي عن أبيه «فأما أنا فإني سألته بالأهواز في سنة أربع وخمسين وثلاثمائة عند اجتيازه بها إلى فارس في حديث طويل جرى بيننا عن معنى «المتنبي» لأنني أردت أن أسمع منه هل تنبأ أم لا؟ فأجابني بجواب مغالط لي، وهو أن قال: هذا شيء كان في الحداثة أوجبته الضرورة. فاستحييت أن أستقصي عليه وأمسكت».

وعندما حاول ابن خالويه، في حضرة سيف الدولة أن يتهمه بالكذب وينعته بالجهل لادعائه النبوة أجابه المتنبي: «أنا لست أرضى أن أُدْعى بهذا، وإنما يدعوني به من يريد الغض

---

(١) عذَّر: نبت الشعر على جوانب لحيته.

مني، ولست أقدر على الامتناع».

قلت: وقضية ادعاء أبي الطيب للنبوة هي أيضاً من المسائل المشكلة التي اختلف فيها الباحثون ما بين مؤكدٍ لها معتمدٍ على عدد من الروايات[(١)]. وما بين منكرٍ مؤول لها[(٢)]. وفي ظني ـ والله أعلم ـ أن الله بحكمته وعدله لا يُلصق لقباً كهذا (أي المتنبي) بإنسان، حيث لا يكاد يُعرف إلا به إلا بأن يكون هذا الإنسان قد ارتكب ما يستحق به أن يوصم بهذا اللقب. واعتبر ذلك بمسيلمة «الكذاب» نظراً لكذبه في ادعاء النبوة.

وإلى هذا الميل ألمح الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ في كتابه «البداية والنهاية» عند ترجمته للمتنبي ـ كما سيأتي ـ حيث قال: «وقد اشتهر ـ أي المتنبي ـ بلفظةٍ تدل على كذبه فيما كان ادعاه من الإفك والبهتان، وهي لفظة المتنبي، الدالة على الكذب، ولله الحمد والمنة»[(٣)].

---

(١) كسعيد الأفغاني ـ رحمه الله ـ في رده على محمود شاكر. المنشور في خاتمة كتاب شاكر.

(٢) كمحمود شاكر ـ رحمه الله ـ في رسالته عن «المتنبي».

(٣) البداية والنهاية «١١/ ٢٧٤».

وأما نسبه[١]، فقد مر بنا قول أبي الحسن الهاشمي «كنت أعرف أباه بالكوفة، شيخاً يسمى عيدان[٢] السقاء يستقي على بعير له، وكان جعفياً صحيح النسب». والمتنبي، كما عرفت من اسمه، يعود بنسبه إلى عرب اليمن لأنه جعفي، جده الأعلى، ينتمي إلى قحطان جد اليمنيين. هذا من جهة نسب أبيه الذي يفاخر به بقوله:

أنـا مَـنْ بعضُـهُ يفـوق أبـا البـا
حـث والنجـل بعـضُ مَـنْ نَجَلَـه

وهو يريد بهذا البيت أن أباه أعلى منزلة ونسباً من أبي الباحث الذي أعياه البحث عن نسب المتنبي؛ لأن الولد بعض من الوالد.

---

(١) قد أطال المعاصرون في موضوع «نسب المتنبي» هل هو من قبيلة «كندة» أم أنه «علوي» كما يقول محمود شاكر في رسالته عن «المتنبي»، أم أنه «دعيٌّ مجهول الأب»! كما يرجح طه حسين في كتابه «مع المتنبي». وكل هذا ـ كما سبق ـ لا يهمني في رسالتي هذه لأنني أعلم قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ وأحكم على الرجل من خلال ما ظهر لي من شعره لامن خلال تخيلات أو ظنون قد لا يحالفها الصواب.

(٢) عيدان وليس عبدان السقاء كما جاء في تاج العروس وانظر: «المتنبي» لمحمود شاكر «ص١٣٧».

وأما جدَّتُه فكانت همْدانية وهي من نساء الكوفة. ولقد كان المتنبي كَلِفاً بأمر هذه المرأة التي كانت قد شملت حفيدها بكل عناية وحنو. وعندما توفيت رثاها المتنبي بقصيدة عصماء حدد لنا فيها مقدار العلاقة الطيبة التي تربطه بها عله يستطيع في ذلك أن يرد لها بعض الجميل الذي أسدته إليه في طفولته «كونها له أما» ولكن القدر كان أقوى من تطلع المتنبي إلى القيام بعملية الوفاء لها، كما أن أعداءه أنذروه في حال دخوله الكوفة فآثر الذهاب إلى بغداد وقلبه يتفطر لوعة وأسى؛ لأنه لم يُلق نظرة الوداع الأخير إلى تلك الأم الجليلة الوادعة.

وإذا كان المتنبي صحيح النسب، أباً وأماً، فهو بهذا عربي قح لا غبار على نسبه.

ولم نر من خلال شعره أنه تحدث عن نسبه ولا رضي أن يتحدث عنه صراحة وجهراً، وعندما سأله والد التنوخي عن ذلك قال: «أنا رجل أخبط القبائل وأطوي البوادي وحدي ومتى أَنْتسب لم آمن أن يأخذني بعض الأعراب بطائلة بينه وبين القبيلة التي أنتسب إليها. ومادمت غير منتسب إلى أحد فأنا أسلم على

جميعهم ويخافون لساني»[١]. وإذا تأملنا القصيدة التي مدح بها أبا العشائر الحمداني، وذلك بقوله:

أنا ابن من بعضه يفوق أبا البا
حث والنجل بعض من نَجَله
إن الكِذاب الذي أُكادُ بِهِ
أَهونُ عندي من الذي نقله
فلا مبال ولا مداج ولا
وانٍ ولا عاجزٌ ولا تُكَلَه

فمن خلال هذه الأبيات نرى أن قوماً قد افتروا عليه وكادوا إليه من جهة نسبه فرد إليهم كذبهم وادعاءهم بأن آباءه أعلى منزلة مما يتصورون؛ فهو لذلك غير مبال بهم، وقادر على الصمود في وجه التحديات بنفسه، دون اللجوء إلى الاستعانة بأحد مهما سما وعلت منزلته.

وهو نفسه أولى بالفخر والاعتداد، وهو في ذلك موطن الفخر لدى آبائه وأجداده، وبه مجدهم وشرفهم كما نرى من خلال قوله:

---

(١) تاريخ بغداد (٤/ ١٠٣).

ما بقومي شرُفْتُ بل شرفوا بي
وبنفسي فخرْتُ لا بجدودي

وبهم فخر من نطق الضاد
وعوذُ الجاني وغوثُ الطريد

أو قوله:

ولستُ بقانعٍ من كل فضلٍ
بأن أُعزى إلى جدٍّ هُمَامِ

وفي رثاء جدته يقول:

ولو لم تكوني بنت أكرم والد
لكان أباك الضخم كونك لي أمّا

فهو هنا يرى أن قيمة جدته لم تسمُ إلا لأنها أمٌّ له.

وإذا كان المتنبي لم يصرح بنسبه علانية، فهل نستطيع أن نلمس صدق انتمائه إلى القبائل اليمنية من خلال مدحه لشجاع ابن محمد الأزدي، وعلي بن أحمد الطائي، وشجاع بن محمد الطائي، وعبيد الله بن يحيى البحتري، وأخيه أبي عبادة، أو من مدحه للتنوخيين في اللاذقية ومنهم علي بن إبراهيم التنوخي الذي قال فيه:

أُنسـي السكـون وحضـرمـوتـاً
ووالـدتـي وكنـدة والسَّبيعـا

أو من شعره في تفضيل اليمن على خِنْدِف في قوله:

قضـاعـة تعلـم أننـي الفتـى
الـذي ادُّخِـرْتُ لصـروف الـزمـان
ومجـدي يـدلُّ بنـي خنـدف
علـى أن كـل كـريـم يمـانـي

أو في مدح عبيد الله بن يحيى البحتري بقوله:

كفى بأنك من قحطان في شرف
وإن فخـرت فكـل مـن مـواليكـا

أو في مدح أخيه أبي عبادة البحتري بقوله:

قد كنتُ أحسبُ أن المجد من مضر
حتـى تبحتـر فهـو اليـوم مـن أدد

وهل يمكن أن نعده مضرياً من خلال مدحه لأبي الحسين علي بن أحمد المُري في جبل جرش، في قصيدته التي مطلعها:

لا افتخـار إلا لمـن لا يضـام
مـدركٍ أو محـاربٍ لا ينـامُ

إلى أن يقول:

إنمــا مــرةُ بــنُ عــوف بــن سعــدٍ
جمــــراتٌ لا تشتهيهـــــا النعـــــام

ولا يضير المتنبي سواء انتسب إلى قحطان أو إلى عدنان، لأن الفخر هو بالعمل الصالح لا بالأنساب، وقد قال ﷺ: «**من بطأ به عمله لم يُسرع به نسبُه**»[١].

أما مذهبه الديني: فقد اختلفت فيه الأقوال أيضاً، حيث حاول بعض الروافض أن ينسبوه إلى مذهبهم، كما فعل القمي في كتابه «الكنى والألقاب»[٢] ومحسن الأمين! في كتابه «أعيان الشيعة»[٣].

وزاد بعضهم على هذا عندما ادعى أنه كان قرمطياً! كما يزعم طه حسين في كتابه «مع المتنبي» حيث قال (ص٤٥): «إن المتنبي قد نشأ نشأةً شيعية غالية، لم تلبث أن استحالت إلى قرمطية خالصة».

وخالفهم آخرون في هذا الرأي؛ كالدكتور محمد محمد حسين في كتابه «المتنبي والقرامطة».

---

(١) أخرجه مسلم.
(٢) (٣/ ١١٤ ـ ١١٨).
(٣) نقلاً عن «المتنبي» لخليل شرف (ص٢٣).

وتوسّط آخرون باختيارهم أن المتنبي كان علوياً ـ أي ينتمي إلى العوائل العلوية ـ وهذا اختيار محمود شاكر في كتابه «المتنبي».

والذي يطالع ديوان الشاعر لا يجزم بأيٍّ من تلكم الآراء السابقة، لأن أبا الطيب ـ كما يظهر من شعره ـ لا يُقيم وزناً لمسألة المذهب، لأنه مشغول عنه بتحصيل طموحاته الدنيوية الشخصية. وكما أنه قد مدح بعض أفراد الشيعة، كذلك فإنه قد مدح بعض أهل السُنة. ولا ينفي هذا أن تكون نشأة الرجل الأولى شيعية نظراً لبيئته، ولكنها لم تظهر في شعره، وهذا ما يهمنا إثباته.

أما حياته: فيمكن تقسيمها إلى أربع مراحل: المرحلة الأولى تمتد من سنة ٣٠٣هـ إلى سنة ٣٣٧هـ في العراق والشام، والمرحلة الثانية من سنة ٣٣٧هـ إلى سنة ٣٤٦هـ في حلب والمرحلة الثالثة في مصر من ٣٤٦هـ إلى سنة ٣٥٠هـ، والمرحلة الرابعة في العراق وفارس من سنة ٣٥٠هـ حتى وفاته سنة ٣٥٤هـ. وها هي بالتفصيل:

المرحلة الأولى من حياة المتنبي
(٣٠٣-٣٣٧هـ)

جاء في يتيمة الدهر للثعالبي أن المتنبي وُلد «بالكوفة سنة ثلاث وثلاثمائة، وأن أباه سافر إلى بلاد الشام، فلم يزل ينقله من باديها إلى حضرها، ومن مدرها[١] إلى وبرها[٢] ويُسلمه[٣] في المكاتب ويردده في القبائل، ومخايله[٤] نواطق[٥] الحُسنى عنه، وضوامن[٦] النجح فيه، حتى ترعرع أبو الطيب وشعر وبرع»[٧].

ومن هنا قيل: «وكل إناء بالذي فيه ينضح» إذ إن علائم الذكاء قد بانت على أحمد بن الحسين منذ نعومة أظفاره، ونما على حب العلم في بلدة كالكوفة، وقد كانت منارة علمية يؤمها

(١) المدر: الحضر سكان المدن المبنية من الصخر والطين.
(٢) الوبر: الذين يسكنون خيام الشعر.
(٣) يسلمه: ينزله ويدخله.
(٤) مخايله: علائمه وسماته.
(٥) نواطق: مخبرة.
(٦) ضوامن: من ضمن: كفل وتعهد.
(٧) يتيمة الدهر (١/ ١١١ ـ ١١٢).

الناس من كل حدب وصوب، فكيف لا يستفيد منها ويعب من علمها الجم واحد كالمتنبي الذي قصد كُتَّابها ونهل منه كل ماتوصلت إليه حضارة القرن الرابع الهجري من تنوع وغنى في شتى أنواع العلوم والفنون الأدبية واللغوية التي تهيأ لها جهابذة، كبار، هم في الحقيقة قمة الهرم الحضاري الضخم الذي تمخضت عنه عبقرية المتنبي الذي استطاع أن ينفذ إلى أصول تلك الثقافة العلمية والأدبية واللغوية، بفضل ماأوتيه من القدرات من ناحية، ومن ناحية ثانية باعتماده على أولئك الجهابذة الأعلام ونخص منهم: أبا عمر الزاهد ونفطويه ودرستويه وأبا بكر محمد بن دريد الذي يُعد خاتم أدباء ذلك العصر، وأبا القاسم عمر بن سيف البغدادي وأبا عمران موسى.

إن معرفة المتنبي بأولئك العلماء وغيرهم قد جعلت منه أديباً كبيراً، ولم يكن في وقته من يدانيه في شعره وأدبه.

لقد أكد الرواة أن تأصيل ثقافة المتنبي وعلمه كانت في الكوفة وحدها، وخصوصاً في كُتّاب العلويين الذي لاقى فيه المتنبي كل عناية واهتمام حيث لُقِّن فيه ثقافة حركت في نفسه مكامن الطموح، فاندفع يطلب المجد والرئاسة في الوقت الذي

لم يعد فيه أي قيمة للإنسان المثال إذ إن الأمر قد أفلت من أيدي أصحابه القادرين على المحافظة على أمور الناس ورعاية حقوقهم، الأمر الذي جعل البلاد تعيش في جو من الفوضى في ظل غياب القائد الحازم حيث عمت الاضطرابات وانتشرت الفتن ولم يعد يعتمل في نفوس الناس عموماً غير القلق والخوف، حيث لم يبق من الخلافة العباسية الإسلامية ألا اسمها، وغُزِيت الكوفة أكثر من مرة من قبل القرامطة كما غزيت معظم المدن مما اضطر الناس إلى النزوح عن مدنهم وقراهم.

وقد يُظن في هذا المجال أن المتنبي قد نزح إلى بغداد ولم يكن معه غير خمسة دراهم، وبينما كان يتجول الفتى الناشىء في أسواق تلك المدينة العامرة رأى رجلاً يبيع خمس بطيخات فطلبها منه المتنبي فأبى الرجل أن يبيعها له إلا بعشرة دراهم، وإذا بشيخ يمر فناداه البائع قائلاً: أتسمح أن أحمل هذا البطيخ إلى بيتك؟ فقال الشيخ: كم ثمنه؟ قال: خمسة دراهم. فقال الشيخ: لا، بدرهمين فقط، فحملها له. والمتنبي يتعجب من ذلك قائلاً للبائع: أعطيتك خمسة دراهم وبعته بدرهمين محمولاً؟ فأجابه البائع: اسكت هذا يملك مئة ألف دينار.

لقد كان لهذه الحادثة أثر عظيم على نفس المتنبي حيث

أتمت عنده سعيه الحثيث نحو المال وحب الرياسة وكره الناس، وفي ذلك يقول:

فلا مجد في الدنيا لمن قل ماله
ولا مال في الدنيا لمن قل مجدُهُ

إذا كان أحمد بن الحسين قد نهل مانهل في الكوفة، من الثقافة، من كُتَّابها وعلمائها، فإنه قد نمت عنده رغبة حب الدرس والتحصيل، فاعتمد في سبيل ذلك على نفسه التواقة إلى العلى، فكان يجلس آخر النهار ـ وبعد أن يفرغ من تناول الطعام ـ إلى كتبه ودفاتره يدرس وينقب حتى يمضي من الليل أكثره، وكانت تلك عادته في كل ليلة ـ على حد ما جاء في الصبح المُنْبي ـ

وهو إلى ذلك كان كثير الاطلاع، ويعمل بشكل دائب على تلقف العلوم الأدبية واستلهامها أنى وجدها. ومن جملة ماكان يطالعه ويهتم به ديواني الطائيين ـ أبي تمام والبحتري ـ ويستصحبهما معه في أسفاره. وقد سئل مرة: هذا البيت أخذت معناه من قول الطائي؟ فقال: «الشعر جادة وربما وقع حافر على حافر». وإذا كان المتنبي يجحد ديواني الطائيين فهذا يعود إلى قصور منه، لأن المطالعة من حقه، وبدونها لا يمكن للأديب أو الشاعر أن يبني صرحه الثقافي ويصقل قدرته الفنية

ويشحذ موهبته الأدبية. وذلك لأن الشاعر الحق قبل أن يكون شاعراً عليه وبشكل جازم أن يلم بإنتاج من سبقوه، ويعمل على تجاوزهم في عطائه؛ حتى يكون من المبدعين.

ولعل أوائل شعر المتنبي تدل دلالة قاطعة على أن مواهبه قد تفتحت وهو مازال صبياً في كُتَّاب الكوفة، ومن ذلك قوله:

لا تَحْسُن الوفرة حتى تُرَى
منشورة الضفرين يوم القتال

على فتى معتقل صعدة
يعلها من كل وافي السبال

وليس غريباً على المتنبي أن يقول مثل ذلك، ونحن قد ألمحنا بإيجاز إلى منابع تربيته الشخصية، وظروف عصره السياسية، والفتن الدامية التي كانت تعبث فيه؛ فمن أجل ذلك كله نرى أن شاعرنا كان صدى لذلك العصر، وهو يرسم على حداثة سنه، مثل تلك الصورة الدامية التي تجعله يطمح إلى الجهاد، والثورة ضد سياسة عصره التي خلقت فيه نفسية متوثبة ثائرة.

ولعل الفتى الناشىء أحس أنه من الواجب أن ينطلق إلى البادية ليفيد منها مايشاء ـ على عادة من سبقوه ـ وينتفع من

مشافهة الأعراب لخلو ألسنتهم من العجمة التي عمت قرى العراق، فمكث بها طويلاً، وعاد بعد سنين بدوياً قحاً بعد أن أحاط بشكل دقيق «باللغة والعلم الواسع بأيام العرب ومواقفها وأنسابها» وغير ذلك مما له أثر بالغ في إنماء مواهب الفتى الفنية والإبداعية.

أما انصراف المتنبي في تلك الآونة عن مدح رجال الحكم وعلى رأسهم الخليفة الذي كان ألعوبة في أيدي بني بويه، فيمكن أن يعود إلى أمور عديدة أهمها:

أ ـ إن نزعة المتنبي العلوية كانت تأبى عليه أن يمدح الخليفة العباسي أو يتصل به على الأقل، لأنه لا يمثل ـ في نظره ـ الوجه الشرعي للحاكم المسلم.

ب ـ إن شاعريته وتساميه يأبيان عليه أن يمتدح أناساً قد ابتعدوا «عن جد الأمور» وانصرفوا إلى اللهو والعبث، حيث كانت الغيرة والشقاق تدبان في نفوس الناس فيحتكمون غالباً إلى السيف أو إلى المراوغة، فتزهق الأرواح أو تهدر الكرامات بإهراق ماء الوجوه.

ج ـ إن بني بويه، وهم ذلك الجسم الغريب عن أرض العرب، كانوا سبب هذا التشرذم والضياع وأداته.

وإذا كان المتنبي لم يجد في حكام العراق من يستحق المدح والثناء فإنه وجد فيهم الشخصية المتخاذلة التي نفرته من الملوك، حتى وجد الخير كل الخير في البعد عنهم وعدم لقائهم، وإعلان الحرب عليهم بشعره.

أما حال المتنبي المادية، فإن الرواة لم يتكلموا عنها تصريحاً أو تلميحاً، وإنما نستطيع أن نستقرئها من خلال شعره حيث يقول:

أيـن فضلـي إذا قَنِعْـتُ مـن الـدهـ
ر بعيـــشٍ مُعجـــل التنكيـــد
ضاق صدري وطال في طلب الرِّزْ
ق قيـــامـــي وقـــل عنـــه قعـــودي

أو قوله وهو يخاطب نفسه التي تدفعه إلى المجد والشهرة، ولكن بشكل رخيص وبدون تعب وتضحية:

تـريـديـن إدراك المعـالـي رخيصـة
فلا بد دون الشهد من إبر النحل

أو قوله كذلك:

أذاقنـي زمنـي بلـوى شـرقـت بهـا
لـو ذاقهـا لبكـى مـا عـاش وانتحبـا

ألا ترى في قوله هذا مقدار المرارة التي يعانيها المتنبي من ظلم الزمان وجوره؟ ذلك أن الزمان لو تجرد إنساناً يحس ويشعر وذاق تلك البلوى لقضى العمر منتحباً باكياً!

لقد ضاق المتنبي ذرعاً في العراق، فيمم وجهه شطر الشام عله يجد فيها مايؤنس ويخصب. وماكاد يصل إلى اللاذقية سنة ٣٢٠هـ حتى تورط في قصة النبوة ودخل من أجلها السجن بأمر من عامل الإخشيد الذي مالبث أن استتابه وأطلق سراحه بعد أن ذاق المتنبي الأهوال، ورأى الموت رأي العين لما ساموه إياه من ألوان العذاب المختلفة. وبعد خروجه من السجن هام على وجهه وأوشك أن يفقد الأمل، لولا أن حط عصا الترحال في حضرة بدر بن عمار الذي أحيا في نفس أبي الطيب ميت الأمل سنة ٣٢٨هـ.

لقد وجد المتنبي في بدر رجلاً عربياً شهماً وشجاعاً وكريماً، طيب النفس، كارهاً للعجم، فذ الرجولة، فبقي في جواره بطبرية التي كان والياً عليها من قبل ابن رائق، إلى أوائل سنة ٣٣٣هـ.

وأما بدر فقد وجد في المتنبي ماوجده المتنبي فيه، من ملامح العظمة والطموح فأكرمه، وأجزل له وشجعه على أن

يقول فيه مالم يستطع الدهر محوه، ولكن الصفاء لم يطل لأن الوشاة والمفسدين قد أوقعوا بين الشاعر وأميره وأوغروا صدر بدر على المتنبي، الأمر الذي اضطره إلى الرحيل إلى دمشق قاصداً عملاً من أَعمالها يقال له حمى جرش، تحت إمرة أبي الحسين علي بن أحمد المري الخراساني، إذ كانت بينهما مودة وهما بطبرية، وذلك سنة ٣٣٣هـ واحتمى به حيث مدحه المتنبي بقصيدتين. لقد حدد في الأولى معالم نفسه بحكمتها وعلوها وقدرتها وانتفاضتها وثورتها، وفي القصيدة الثانية حدد سيره في البوادي وواصفاً إياه، وقد عرّض بابن كروس الذي أوقع بينه وبين صاحبه ابن عمار، واعتذر من صديقه المري مودعاً في آن معاً.

ثم مالبث أن اتجه شطر أنطاكية التي دخلها سنة ٣٣٤هـ وبها أبو عبدالله الخصيبي، فقصده المتنبي ومدحه واصفاً رحلته في البادية وخشيته من أن يُفتك به فيها.

وفي هذه الأثناء جاءه كتاب من جدته تعاتبه وهي تبدي نحوه أجمل أشواقها وتطلب منه التوجه إلى العراق ففعل، ولكنه لم يستطع دخول الكوفة فدخل بغداد وكتب إلى جدته أن تذهب إليه، وعندما استلمت تلك المرأة كتاب حفيدها سقطت ميتة من

الفرح، فقال فيها سنة ٣٣٥هـ قصيدته المشهورة التي مطلعها:

ألا لا أُرِي الأحداث مدحا ولا ذماً
فما بطشها جهلا ولا كَفُّها حِلْما

ثم لم يلبث بعد ذلك أن رجع من بغداد إلى أنطاكية حيث مدح أبا الفضل أحمد الأنطاكي في القصيدة التي مطلعها:

لك يامنازل في القلوب منازل
أقفرتِ أنتِ وهنَّ منك أواهلُ

وبعد ذلك لبى المتنبي دعوة أبي محمد الحسن بن طغج، والي الرملة، سنة ٣٣٦هـ، بعد أن ألح بدعوته إليه، فأكرمه وأجزل له العطاء. فقال فيه المتنبي شعراً كبيراً ثم مالبث أن طلب منه أن يمدح طاهر بن الحسين، وهو شيخ من شيوخ العلويين بالرملة، فمدحه إكراماً لابن طغج.

وفي سنة ٣٣٦ صمم أبو الطيب على الاتصال بأبي العشائر الحمداني ويمم وجهه شطر أنطاكية، فمر بطرابلس، وبها ابن كيغلغ الذي راسل المتنبي أن يمدحه، فاحتج المتنبي بيمين أقسمه أن لا يمدح أحداً إلى مدة محددة، فعاقه وسد عليه منافذ الطرق. ولكن المتنبي تمكن من الذهاب إلى دمشق ولم يستطع ابن كيغلغ من اللحاق به، وهجاه أبو الطيب بقصيدته التي مطلعها:

لهوى القلوب سريرة لا تعلم
عرضاً نظرت وخِلْتُ أني أسْلم

إلى أن يقول:

وإذا أتاك محدثاً فكأنه
قِرْدٌ يقهقهُ أو عجوزٌ تلْطِمُ

ومنها كذلك:

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله
وأخو الجهالة في الشقاوة ينعمُ
والظلم من شيم النفوس فإن تجد
ذا عِفَّةٍ فلعلَّةٍ لا يَظْلِمُ

ولكن المتنبي لم ينثن عن تصميمه، فقد وصل إلى أنطاكية واتصل بأميرها أبي العشائر الحمداني الذي كان والياً عليها من قبل سيف الدولة أمير حلب. وكانت علاقة المتنبي بأبي العشائر علاقة احترام وتقدير وإعجاب حيث مدحه المتنبي بأكثر من قصيدة، وفي مناسبات مختلفة. ودخول المتنبي أرض بني حمدان كان بعد أن تهيأت له شروط النضج إذ بلغ عمره الثالثة والثلاثين، وأصبح قادراً على التصرف بأمور اللغة لامتلاكه ناصيتها، وقد صقلت إحساسه التجارب.

المرحلة الثانية (٣٣٧هـ-٣٤٦هـ)
في رحاب سيف الدولة :

ولحسن حظ المتنبي، قدم - في تلك الفترة - سيف الدولة إلى أنطاكية، فقدَّم أبو العشائر المتنبي إليه بعد أن أثنى عليه كل عبارات الثناء، فكان ذلك بدء الاتصال بين سيف الدولة والمتنبي، فمدحه المتنبي في جمادى الأولى سنة ٣٣٧، ونقله معه إلى حلب بعد أن أمضى المتنبي في حضرة أبي العشائر مايقرب من سنة كاملة.

لقد كان لتعرف المتنبي على سيف الدولة شأن مهم في تاريخ الأدب العربي. لقد عرفنا عن المتنبي أنه يتمتع بنفس وثابة طموحة فهو من الذين لم يرقهم ماكان يسود القرن الرابع الهجري من الأمور السياسية المتردية فنادوا: الثورة! الثورة!.

والمتنبي، ومنذ نعومة أظفاره، قد حمل لواء هذه الثورة وهو يدعو الناس إلى أن ينفضوا عنهم غبار الذل والخنوع والاستكانة، فاسمعه يقول وهو يخاطبهم من خلال نفسه:

عِشْ عزيزاً أو مُتْ وأنت كريمٌ
بين طعْن القنا وخفْق البُنُود

فـــرؤوس الـــرِّمـــاح أذْهـــبُ للغيـ
ـــظ وأشفـــى لغـــل صـــدر الحقـــود
فـاطلـــب العـــز فـــي لظـــى وذر الـــذُّ
لَّ ولـــو كـــان فـــي جنـــان الخلـــود[١]

ولما لم يجد فيهم أذناً صاغية أخذ يتعالى عليهم بعد أن أحس بأنه طائر يغرد في غير سربه، إلى أن تهيأت له الظروف واتصل بسيف الدولة، إذ وجد فيه ضالته وبيت القصيد عنده.

حقاً إن سيف الدولة كان فيما سبق من حياة المتنبي يمثل الحلقة المفقودة التي كان يبحث عنها، فوجدها متمثلة في عليّ بن أبي الهيجاء بن حمدان بن الحارث بن لقمان بن راشد من بني تغلب.

لقد كان عليّ بن أبي الهيجاء بن حمدان شاعراً مجيداً وناقداً ذا بصر بالشعر، إضافة إلى كونه فارساً مغواراً ذا أطماع سياسية بعيدة خاض من أجلها المعارك العديدة مع جند الإخشيد بالشام، ومع جند الروم في الشمال، ورجع من معظمها سالماً منتصراً.

ولقد وجد المتنبي في صفات سيف الدولة واكتمال معالم

---

(١) سيأتي التعليق على مافي هذا البيت من مؤخذات شرعية.

الرجولة فيه صدى لما تعتمل به نفسه، فأحب علياً الشاعر والناقد والفارس والعربي القح الذي يناهض الأعداء من فرس وروم، ويسجل عليهم الانتصار تلو الانتصار، والمتنبي شاعر وناقد وفارس يدعو إلى الثورة ويفتش عمن يعضده بها ليرفع الضيم عن الناس في عصره الذي كانت تسوده الفوضى والإرهاب من التمزق الاجتماعي والفراغ السياسي، الأمر الذي جعل الخوف والقلق يتسربان إلى نفوس الناس حيث سيطر عليهم اليأس وانعدم الرجاء وانقطع الأمل.

لقد انصرف المتنبي إلى سيف الدولة وأصبح شاعر بلاطه المفوه، كما امتاز عن غيره من شعراء هذا البلاط بأمور كثيرة منها: أنه لا يُلقي قصائده أمام سيف الدولة إلا وهو جالس، ولا يقبِّل الأرض بين يديه لأنه يعتبره نده، الأمر الذي جعل بعض الناس، آنذاك يتهمون المتنبي بالجنون.

أما شعر المتنبي في هذه المرحلة من حياته فإنه يحمل الكثير من ملامح التجاوز التي بدأت بالتفتح في اللاذقية عند التنوخيين أولاً، ثم مابدر منه من تجليات في مدح بدر بن عمار في طبرية ثانياً ثم ماصدر عنه من شعر في مدح محمد بن طغج ثالثاً. وهذا التجلي في عمليات التجاوز تلك، قد حط رحاله في

شخص سيف الدولة، حيث بلغ المتنبي في شعره فيه، مالم يبلغه أحد من الشعراء ممن أتى قبله ولا بعده في تاريخ الأدب العربي كله، ولهذا قال ابن رشيق القيرواني في كتابه العمدة: «وليس في المولدين أشهر اسماً من الحسن بن هانىء، أبي نواس، ثم حبيب (أبي تمام) والبحتري ويقال إنهما أخملا في زمانهما خمسمائة شاعر كلهم مجيد، ثم يتبعهما في الاشتهار ابن الرومي وابن المعتز. . فإن هؤلاء الثلاثة (أبا نواس وأبا تمام والبحتري) لا يكاد يجهلهم أحد من الناس، ثم جاء المتنبي فملأ الدنيا وشغل الناس»[١].

لقد جمع سيف الدولة في بلاطه ـ إضافة إلى كونه أديباً وشاعراً وذواقة للشعر ـ من الأدباء والشعراء والعلماء مالم يجتمع مثله إلا في بلاط هارون الرشيد.

ولقد عظم مقام المتنبي في بلاط سيف الدولة وشعر المتنبي فيه بشيء من الرضا النفسي والاطمئنان الروحي، إذ كان يذهب في الغزوات مع سيف الدولة مقدماً على الجنود والقواد، كما بات قرير العين إذ أقطعه الأمير قرية قرب حلب اسمها سبعين، كان ذلك لأن الأمير سيف الدولة قد أدرك ملامح

(١) العمدة (١/ ١٠٠).

الطموح في نفس المتنبي إلى السلطان والحكم.

هذه الخطوة التي لقيها المتنبي قد أججت النار حسداً وغيظاً في قلوب الكثيرين في بلاط سيف الدولة، مما جعلهم يعملون على أن يوقعوا بين الأمير وشاعره، إلى أن تمكنوا من إيغار قلب سيف الدولة على المتنبي، إذ كانوا يتنازعون على الألفاظ والإعراب والأشعار بينما يغزو الروم ميافارقين سنة ٣٤٥هـ ويهدمونها ويقتلون من أهلها عدداً كبيراً بعد أن سبوا من سبوا ونهبوا ما نهبوا.

هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية فإن معز الدولة حاول أن يضغط على سيف الدولة بسبب تقاعس أخيه ناصر الدولة وإخلافه مع سالب الخلافة حقها، ابن بويه، الأمر الذي اضطر سيف الدولة إلى أن يفاوض على مقادير بالغة من المال سنوياً فرضي ابن بويه وانصرف عن حرب بني حمدأن لأن المال عنده أهم من الحرب وخصوصاً أن الناس قد امتنعوا عن دفع الخراج لقصر ذات يدهم.

وقد قيل: إن المتنبي شارك سيف الدولة في غزوة إلى بلاد الروم ولم ينج من العرب في تلك الغزوة غير سيف الدولة وستة فرسان من صحبه أحدهم المتنبي.

وإذا نظرنا إلى شعر المتنبي في هذه المرحلة فلا نرى أنه مجرد ألفاظ مرصوفة وإنما هو في الحقيقة صور لأحاسيس تنبع عن قلبه ومن شعوره، ولعل أجود الشعر حقيقة هو أكثره علوقاً بالنفس لأنها مصدر التأثر والانفعال. وكيف إذا كان الأمر يتعلق بشاعر كالمتنبي، أحس بالاندفاع نحو المثل التي تتطلب جرأة وشجاعة وفروسية وبطولة، فالمدح في البطولة عند المتنبي يتصل بالعمق عند صياغته، وأما في غيرها فلا يمكن أن يتجاوز السطح الظاهري من قلبه.

ولعل المتنبي عند مواكبته لسيف الدولة لم يسجل أحداث سيف الدولة وشمائله وحسب، إنما سجل نفسه في مشاعرها المختلفة؛ في فرحها وحزنها، في حبها وكرهها، في تعاليها وانقباضها، في طموحها، في اطمئنانها وقلقها.

وإذا كان المتنبي قد أجاد وحَلَّق في مدح سيف الدولة فلعلمه أن كلامه كان على مستوى قدرات ممدوحه الأدبية واللغوية والشعرية والبيانية إضافة إلى المكانة التي كان يتحلى بها رجال بلاطه. فهو بهذا صناع حاذق تجاوز قدرات النخبة الرائدة في زمانه. الأمر الذي خلق له حساداً كثيرين ـ كما ألمحنا قبل قليل ـ استطاعوا أن يعرضوا به ويوغروا صدر الأمير عليه لأنه

كان لتعالي نفسه واعتداده بها يقف من الأمير موقف الند للند، وهو لم يكن كلفاً به إلا لأنه يحمل الصفات نفسها التي يراها في العربي المثال الذي كان يرنو إليه منذ أن أبصر النور وتعمقت نفسه بحقيقة الأمور.

وأما موقفه من الناس فقد كان دون ذلك حيث ترك في كل حاشية دخلها حساداً وأعداء؛ كابن كرّوس في حاشية بدر بن عمار ومثله في حاشية أبي العشائر، وماأكثرهم في حاشية سيف الدولة، حتى قال فيه الواحدي، وهو من شراح ديوانه: «ولكن الرجل (المتنبي) سيىء الرأي، وسوء رأيه أخرجه من حضرة سيف الدولة». وسوء رأيه هذا دليل على أنه لا يعرف المداراة، إذ لا شيء أصعب من مداراة الحساد.

لقد استجاب سيف الدولة لأقوال المغرضين وتلون عليه ولم يثبت معه على حال، فلم يجد المتنبي بعد ذلك إلا الرحيل، وخصوصاً بعد أن رماه سيف الدولة بدواة أسالت الدماء على وجهه، فقال المتنبي على الفور ارتجالاً:

إن كان سرَّكُمُ ماقال حاسدنا

فما لجرح إذا أرضاكم ألم

وقيل كذلك إن ابن خالويه، وهو أستاذ سيف الدولة، قد

ضربه بمفتاح كان يحمله، فغضب أبو الطيب وغادر حلب متوجهاً إلى دمشق في أواسط سنة ٣٤٦هـ-٩٥٧م.

لقد تجلت في هذه المرحلة شاعرية المتنبي في دقة تصويره للحروب وهو يجسد بطولات سيف الدولة فيها، خاصة مما نستدل على أنه كان عارفاً بأسرار الجيوش وأساليب القتال. وقد ضَمَّن شعره الكثير من الحِكَم التي ذهبت أمثالاً على ألسنة الناس، أما الأسلوب فقد ابتعد به المتنبي عن التكلف، وجرى في شعره على السليقة.

* * *

المرحلة الثالثة من حياة المتنبي: في رحاب كافور (٣٤٦-٣٥٠هـ)

وصل المتنبي إلى دمشق وعليها من قبل الإخشيد والٍ يهودي يدعى ابن ملك، والتمس من المتنبي أن يمدحه فلم يعره شاعرنا أذناً صاغية؛ الأمر الذي جعل ابن ملك يخبر كافوراً الإخشيدي عن وجود المتنبي في قبضته بدمشق، فأمره أن يرسله إليه. وعندما أحس المتنبي بأن دمشق تضيق به انطلق إلى الرملة فاستقبله أميرها الحسن بن عبدالله بن طغج بالهدايا وحمله على فرس جواد وقلده سيفاً محلى واعتذر المتنبي عن مدحه. ثم مالبث كافور أن اتصل بابن طغج قائلاً: أترونه (المتنبي) يبلغ الرملة ولا يبلغ إلينا؟ ثم لم يلبث كافور، أن كتب إلى المتنبي نفسه يستدعيه، فوجد الشاعر أن من الواجب عليه الذهاب إلى مصر والمثول أمام كافور.

لقد كان كافور عبداً حبشياً اشتراه محمد بن طغج الإخشيد الذي أسس الدولة الإخشيدية في مصر. وكان كافور على جانب من الذكاء خوله الارتقاء في المناصب حتى أصبح قائداً لجيوش الإخشيد، فقاد الجيوش ضد ابن رائق وضد سيف الدولة

فهزمه وأخرجه من دمشق بل ومن حلب نفسها، ثم لم يلبث كافور أن ترك له حلب، ومصر لابن الإخشيد أنوجور وذلك سنة ٣٣٥ بعد وفاة الإخشيد.

وانتصار كافور على ابن رائق وعلى سيف الدولة، أطلق يده على مقدَّرات دولة الإخشيد، وضيق الخناق على أُنوجور الذي صمم على الخروج إلى الرملة، فوشت أمُّه به إلى كافور فمنعه عن رغبته، ثم لم يلبث أن توفي سنة ٣٤٩هـ، مما اضطر كافور إلى الذهاب إلى دار الخلافة حيث ضمن بقاء الولاية في بني الإخشيد وتعيين علي مكان انوجور على ولاية مصر، ولكن علياً هذا مالبث أن مات واستقل كافور بحكم مصر سنة ٣٥٥هـ. وبقي على سدتها حتى توفي سنة ٣٥٦.

إلى جانب ذكاء كافور وحنكته السياسية، فقد كان على جانب لا بأس به من الدراية التامة بعلوم اللغة العربية وآدابها. بدليل جوابه على بيت المتنبي الذي يندد فيه بمقتل شبيب الخارجي إذ يقول:

وقد قتل الأقران حتى قتلته
بأضعف قرن في أذل مكان

فأجابه كافور على الفور لإحساسه بالتعريض به قائلاً:

«لا والله بل بأشد قرن في أعز مكان».

ومن صفات كافور، إلى ذلك، حبه للعلم والعلماء واستماعه إلى الشعراء الذين كان يجيزهم ويجزل لهم العطاء. إضافة إلى أنه كان ديناً متواضعاً سخياً كثير الهبات والخلع على حد تعبير المقريزي في خططه.

هذا كافور في كتب التاريخ والأدب ولكنه في كافوريات المتنبي: فدم، غبي، يُباع في الأسواق بأبخس الأثمان، وهو دامي الأذن، نكد، منحرف، ولا شيء يقدر على تقويمه إلا العصا التي ينبغي أن تبقى مشهورة فوق رأسه وبين كتفيه حتى تُطوعه ويسهل قياده!

أما غرض كافور من دعوة المتنبي فهو كغرض أي رجل يسعى إلى المجد والشهرة وذيوع الصيت، ولا شيء يقود إلى ذلك إلا شعر شاعر مفوه كالمتنبي. وأما غرض المتنبي عند كافور فهو رغبته في أن يوليه كافور على صيدا. وقام المتنبي بكل مايمكنه في سبيل تحقيق تلك الرغبة التي كان كافور قد وعده بها. ولكنه لم ينل من كافور سوى المماطلة والتسويف، الأمر الذي جعل المتنبي يفقد الأمل في إنجاز ذلك الوعد الذي بذل في سبيله ماء وجهه بعد أن تخلى عن كثير من الشروط التي كان قد اشترطها على سيف الدولة سابقاً، إذ إنه كان يلقي شعره

بين يدي كافور وهو واقف على عكس ماكان يحدث في حضرة سيف الدولة. وعندما سئل كافور عن تلك المماطلة قال: «هو في الفقر وعدم العون سمت نفسه إلى النُّبُوَّة، فكيف يكون أمره إذا أصاب الولاية»!

وكافور بهذا الجواب سياسي داهية محنك، ولا يُسْتبعد أن يفوته شيء مما جاء في شعر المتنبي من التعريض به تصريحاً وتلميحاً. وإذا تأملنا قوله يمدحه:

أُغالِبُ فيك الشوق والشوقُ أغْلَبُ
وأعْجَبُ من ذا الهجر والوصْلُ أعجبُ

فماذا نرى؟ فالضمير من «فيك» يرجع إلى سيف الدولة، ويريد بالهجر مفارقته سيف الدولة، وبالوصل مقدمه على كافور، ثم يزيد بقوله:

أما تغلط الأيام فيَّ بأنْ أرى
بغيضاً تُنائي أو حبيباً تُقَرِّبُ

عشية أخفى الناسُ بي من جفوتُهُ
وأهدى الطريقين التي أتجنبُ

وإذا كان كافور، كما أشرنا، أديباً من أدباء عصره وذواقةً للأدب، فهل تخفى عليه هذه الضمائر التي تعود إلى حنين المتنبي إلى سيف الدولة؟ ولنقرأ هذا البيت:

إنمـا الجلـد ملبسٌ وابيضـاضُ الـ
ـنفسِ خيـرٌ مـن ابيضـاض القبـاء

ألا ترى أن في هذا القول سخرية من خلال تعريضه به لشدة سواده الذي جعله المتنبي مادة مدحه؟

ألا تلاحظ أن مثل هذه الأقوال، في معرض المدح، لا يمكن أن تحمل في نفس كافور إلا الحيطة والحذر من مادحه والبغض له وتحيُّن الفرص للانقضاض عليه في الوقت المناسب؟.

لقد أقام المتنبي في مصر من جمادى الثانية سنة ٣٤٦هـ إلى التاسع من ذي الحجة سنة ٣٥٠هـ، مدح فيها كافوراً بتسع قصائد وقطعتين. ويعادل ماأنتجه المتنبي في كافور ربع ماأنتجه في سيف الدولة.

ولم يغرب عن بال المتنبي، في حضرة كافور، ماكانت عليه مصر، والفسطاط خصوصاً، من المستوى الثقافي البالغ الأهمية، الأمر الذي جعل المتنبي يدقق شعره ولا ينشده إلا بعد أن يخضعه لامتحان عسير من النقد والتمحيص، ولأجل ذلك قال طه حسين «ولست أغلو إن قلت: إن شعر المتنبي في مصر أقلُّ سقطاً من شعره في حلب، لأن المتنبي فيما يظهر كان يقدر

العلماء والمثقفين المصريين، وثم سبب آخر لابد من الإلمام به والإشارة إليه. فأكثر شعر المتنبي في حلب، حين يقول الشعر في المناسبات المختلفة، مرتجلاً حيناً وطائعاً للأمر حيناً، ومتكلفاً حيناً آخر ومتكلفاً ليثبت أمام منافسيه مرة ثالثة. أما في مصر فشعر المناسبات لا يكاد يوجد في الديوان، ولم يحتج الشاعر إلى الارتجال؛ لأن اتصاله بكافور لم يكن من القوة بحيث يثير حاجته إلى ذلك.. ومهما يكن من شيء فإن شعر المتنبي الذي قاله في مصر، أو الذي ألهمته إياه مصر! مختار كله، بريء من السخف واللغو أو كاد»[1].

وإذا قلبت النظر في شعر المتنبي في كافور فإنك ستجد أن أبيات المديح فيها معدودة، وما بقي منها يدور: إما حول نفسه، وإما حول مقامه بحلب وحنينه إلى سيف الدولة وأيامه الكريمة، وقد تخللت كل ذلك فلسفة حزينة متشائمة وإن لم يقصد إليها، وإنما أملتها ملابسات حياته، فأتت في موضعها من قصائده ملونة بإحساسه.

أما من قابلهم المتنبي في مصر؛ فمنهم جعفر بن الفرات وابن خنزابة وأبو شجاع فاتك الذي أهدى المتنبي هدايا ثمينة

---

(١) مع المتنبي (ص٢٩٠).

فمدحه أبو الطيب بقصيدته التي مطلعها :

لا خيْـل عنـدك تُهْـديهـا ولا مـال
فلْيُسْعِدِ النطق إن لم تُسعِد الحالُ

إلى أن يقول :

وقـد أطـال ثنـائـي طـولُ لابسـه
إن الثنـاء علـى التنبـال تنبـالُ

ولعل هذه القصيدة التي تحمل تعريضاً واضحاً بكافور قد جعلت أبا الطيب يعزم على الرحيل عن مصر، وهو يتحين الفرص لتنفيذ ذلك. وبعد أن انقطع أبو الطيب عن مدح كافور ستة عشر شهراً عاد إلى مدحه ليشعره أنه بات قرير العين في بلاطه، وكان ذلك سنة ٣٤٩هـ.

ولم يكن لأبي الطيب من سلوى في الديار المصرية سوى أبي شجاع فاتك الذي توفي في شوال من سنة ٣٥٠هـ، فأحس المتنبي عند ذلك بالفراغ النفسي الرهيب، فأخذ جدياً يتدبر أمر الرحيل، حتى تم له ماأراد بعد وفاة فاتك بشهرين، في السنة المذكورة نفسها، حيث هرب ليلة عيد الأضحى بعد أن أرسل إلى أبي بكر الفرغاني رقعة طلب منه أن يسلمها إلى كافور عشية العيد عند العتمة قائلاً: فقد هنيته بها وذكرت عذري. وكانت تلك الرقعة تحمل قصيدته المشهورة في هجاء كافور،

ومطلعها:

عيــدٌ بــأيــة حــالٍ عُــدْت يــا عيــدُ
بمــا مضــى أم لأمــرٍ فيــك تجــديــدُ

فعاش كافور بهذا الهجاء حياة مرة لم يعرف معها طعم الحلاوة.

* * *

المرحلة الرابعة من حياة المتنبي: في العراق وفارس (٣٥٠ ـ ٣٥٤هـ)

لم يكن مطلب المتنبي من كافور مالاً لأنه كان غنياً عن ذلك بفضل ماأغدقه عليه سيف الدولة أثناء وجوده بحلب، وإنما كان مطلبه المحدد الذي نوه إليه بشعره: ضيعة أو ولاية بقوله:

إذا لم تُنِطْ بي ضيعة أو ولاية
فجودك يكسوني وشغلك يسلب

ولكن مماطلة كافور له جعلته يعود إلى العراق وهو يجر أذيال الخيبة وانقطاع الأمل، فدخل مسقط رأسه الكوفة سنة ٣٥١هـ، بعد عراك عنيف بينه وبين عبيده ومرافقيه من ناحية، وبينه وبين نفسه من ناحية ثانية، وبينه وبين أبناء مجتمعه من ناحية ثالثة.

لقد حل في الكوفة بعد أن بَعُد عنها ستة عشر عاماً وهو غير مكترث بمن كانوا يوجهون إليه نظرات الحقد والشماتة.

ولم يطل بقاء المتنبي في الكوفة، إذ غزاها أثناء وجوده فيها رجل خارجي من بني كلاب على رأس مجموعة من

المقاتلين الخوارج، فانبرى لهم دلير بن لشكروز، فهربوا قبل وصوله، فمدحه المتنبي وهو في الميدان، مما جعل دلير يكرمه ويحمله على فرس بمركب من ذهب، وكان ذلك سنة ٣٥٣هـ. ولم يلبث المتنبي أن غادر الكوفة إلى بغداد في تلك السنة.

ولما وصل المتنبي بغداد نزل على صديق له حميم هو علي بن حمزة البصري، وأقام عنده في داره مابقي في بغداد.

وفي بغداد، آنذاك، الخليفة العباسي ووزيره معز الدولة ابن بويه؛ وكان المهلبي، وزير معز الدولة، أديباً وشاعراً اجتمع حوله مجموعة من الأدباء والشعراء منهم: القاضي التنوخي وأبو الفرج الأصفهاني والسري الرفَّاء وابن البقال، وكان المهلبي إضافة إلى ذلك جواداً ذا مروءة، معواناً لأصحاب الحاجات.

ولكن المتنبي لم يمدح أحداً من هؤلاء الثلاثة وخصوصاً المهلبي الذي طلب أصحابه من المتنبي أن يمدحه، وقيل إن هذا الوزير قد أعد لأبي الطيب هدية عظيمة إن هو مدحه. ولكن إعراض المتنبي عن ذلك جعل المهلبي يفرق تلك الهدية على الشعراء في حضرته وقد ألبهم عليه، فأعادوا إلى الأذهان تشبث المتنبي بنزعته العلوية، فراحوا يغمزون من نسبه ويتهمونه

بالشح والتقتير ويتماجنون عليه ويسمعونه كل ما من شأنه أن يغيظه وينغص عليه حياته، ولكن المتنبي لم يجبهم على أهاجيهم وإنما قال: إني قد فرغت من إجابتهم بقولي لمن هم أرفع طبقة منهم في الشعراء:

أرى المتشاعرين غروا بذمي
ومن ذا يحمد الداء العضالا
ومن يك ذا فَمٍ مُرٍّ مريض
يجد مراً به الماء الزُّلالا

وقولي:

أفي كل يوم تحت ضبني شويعر
ضعيفٌ يقاويني قصيرٌ يُطَاوِلُ

كل ذلك ولم يتحرج المتنبي في الرد عليهم، وعاد إلى الكوفة، ثم مالبث أن عاد إلى بغداد بعد أن مات المهلبي الذي أثار حوله بأنانيته ضجة عظيمة ليس فيها ماينعش النفس ويجمل الحياة. كما عادت إلى نفس المتنبي نقمته على الأوضاع السياسية ومستغلي الحكم من الموالي والأعاجم.

وبينما هو كذلك إذ فوجىء بوفاة خولة أخت سيف الدولة؛ فتحركت في نفسه لواعج الحنين وبوادر الذكرى، فأرسل في رثائها قصيدة طويلة غلب عليها تصوير لوعته التي نمَّت عن حب

دفين في نفسه. ويستنبط محمود شاكر من هذا الحب سبباً من أسباب وقوع الجفوة بين الشاعر وسيف الدولة[١].

وبينما كان المتنبي في طريقة إلى فارس، وهو يصطحب معه راويته وصديقه علي بن حمزة البصري، استدعاه ابن العميد لزيارته بأرجان. فلم يخيب المتنبي طلبه وأخبره أنه يقدم؛ مما جعل أبا الفضل بن العميد يخرج لاستقباله بموكب حاشد سنة ٣٥٤هـ، فمدحه المتنبي عرفاناً وتقديراً بقصيدته التي مطلعها:

بـادٍ هـواك صبـرت أم لـم تصبـرا
وبُكَاك إن لم يجر دمعك أو جرى

إلى أن يقول:

مـن مبلـغ الأعـراب أنـي بعـدهـا
جـالسـت رسطـاليـس والإسكنـدرا
وسمعـت بطليمـوس دارس كُتْبـهِ
مُتملكـاً مُتبـدِّيـا مُتحضِّـرا
ولقيـت كـل الفـاضليـن كـأنمـا
رد الإلـه نفـوسهـم والأعصـرا

هذا، ولا ينبغي أن يغرب عن بالنا أن ابن العميد كان رجلاً

(١) «المتنبي» لمحمود شاكر (ص٣٥٨).

عالماً في السياسة والفلسفة والأدب.

وممن حاول الاتصال بالمتنبي وهو بحضرة ابن العميد، الصاحب بن عباد، ولم يكن قد استوزر بعد، وتمنى لو يمدحه، ولكن أبا الطيب رفض أن ينزل إلى مستوى الكتبة في بلاط ابن العميد، الأمر الذي جعل الصاحب ينصرف بكتاباته إلى تبيين مثالب المتنبي من خلال شعره.

ولقد وصل خبر المتنبي إلى شيراز، فأرسل إليه عضد الدولة طالباً زيارته، فتردد المتنبي أول الأمر، ولكن ابن العميد نصحه بأن يلبي تلك الدعوة لأن عضد الدولة رجل شهم وقد يصلك بأضعاف ماوصلتك به. فقال المتنبي: «إني ملقى من هؤلاء الملوك، أقصد الواحد بعد الواحد وأملكهم شيئاً سيبقى بقاء النَيِّرَيْن، ويعطونني عرضاً فانياً، ولي صخرات واختيارات فيعوقونني عن مرادي، فأحتاج إلى مفارقتهم على أقبح الوجوه» فكاتب ابن العميد عضد الدولة بهذا الحديث، فورد الجواب بأنه مملك مراده في المقام والظعن.

فذهب المتنبي إلى عضد الدولة مطمئن النفس مرتاح البال فأقام عنده فترة قصيرة وصفها بقوله: «ماخدمت عيناي قلبي كاليوم» ولقد قال المتنبي فيه ست قصائد وأرجوزة طردية

وقطعة، ولقد كانت إحدى القصائد تعزية بعمة عضد الدولة، وليس فيها من التاريخ غير وصفه لهزيمة هشوذان الكردي الثائر على بني بويه في قصيدتين.

ولعل طبع المتنبي قد خانه في مدح عضد الدولة كما خانه في مدح ابن العميد قبله، فهو ليس من قلبه وإحساسه، وشعره فيهما بين الدلالة على أنه كان متكلفاً، الأمر الذي دفع عضد الدولة إلى القول: «المتنبي قال جيد شعره بالغرب».

ولقد كان لتأثير الطبيعة الفارسية أثر بيِّنٌ على نفسية المتنبي إذ خلقت عنده جواً من الراحة والطمأنينة فتأثر بها ووصفها أجمل وصف، مع أن أبا الطيب لم يمكث في شيراز سوى مدة قصيرة خلال العام ٣٥٤هـ، ودقة وصف المتنبي لطبيعة فارس جعلت طه حسين يقول: «وما أعرف أن المتنبي أتقن وصف الطبيعة في طور من أطوار حياته كما أتقن في هذا الطور، فوصفه لشعب بوان رائع حقاً.. وفي أرجوزته اللامية التي وصف فيها الصيد.. ارتقى فيها الشاعر إلى أرفع ماأتيح له أن يبلغ من الإجادة الفنية الخالصة، وهي التي امتزجت فيها نفس الشاعر بالطبيعة المادية امتزاجاً مدهشاً كاد ينسيه نفسه، كما كاد يصرفه عن عضد الدولة.. ومارأيت طبيعة الشاعر أخذت بحظ من

الخصب والغزارة، كما رأيتها في هذه الأرجوزة»[١].

وعندما وجد عضد الدولة أن أبا الطيب يريد الذهاب إلى العراق لم يحل بينه وبين حريته، بل أغدق على الشاعر الكثير من الهدايا وأكد له وعده بما التزم به، فودعه المتنبي وفي نيته أن يعود إليه بعد أن يرى في الكوفة أهله ومحبيه.

ولقد سار المتنبي مسافة خمسين فرسخاً حتى وصل إلى واسط، في شهر رمضان من سنة ٣٥٤، وكتب فيها آخر قصائده، وهي القصيدة الكافية التي ودع فيها عضد الدولة.

وعندما أصبح المتنبي على مقربة من دير العاقول الذي يبعد عن بغداد مسافة خمسة عشر فرسخاً هجم عليه فاتك الأسدي، خال ضبة بن يزيد العيني، الذي هجاه أبو الطيب هجاء مقذعاً، في قصيدة طويلة مطلعها:

ما أنصف القوم ضُبّه
وأمه الطَّرْطُبَّه
وإنما قلت ماقلت
رحمةً لا محبَّه

(١) مع المتنبي (ص٣٦٨).

ولقد تمكن فاتك، مع مجموعة من بني عمه، من قتل المتنبي وغلامه وولده محسِّد انتقاماً لشرف ابن أخته ضبة حيث ظفر بالبغال المحملة بالذهب والطيب والكتب الثمينة، وكل مابذل المتنبي من أجله عمره وخصوصاً كتبه ودفاتره التي أحكمها قراءة وتصحيحاً.

وهناك رواية أخرى تقول إن عضد الدولة، عندما ابتعد عنه المتنبي، أرسل من يسأله عن عطاء سيف الدولة وعطاء عضد الدولة فأجاب أبو الطيب: إن سيف الدولة يعطي طبعاً وعضد الدولة يعطي تطبعاً. فغضب عضد الدولة فأرسل من أجهز عليه من قوم ضبة.

وقيل كذلك إن الخفراء قد طلبوا منه خمسين درهماً مقابل حمايته فرفض ذلك لشحه واعتداده، وحدث له ماحدث فرثاه المظفر بن علي الطبسي قائلاً:

لا رعى الله سرب هذا الزمان
إذ دهانا بمثل ذاك اللسان
ما رأى الناسُ ثاني المتنبي
أيُّ ثانٍ يُرى لبِكْرِ الزمان

ولكن من الثابت تاريخياً أن فاتكاً الأسديَّ ماسُمِّي فاتكاً

إلا لكثرة ماسفكه من دماء الأبرياء، لأنه كان قاطع طرق ورجل عصابات يعيش على السلب والنهب. ولقد كان معروفاً أن المتنبي إذا أراد الخروج من بلد إلى بلد يحمل معه كل مايملك فانتهز قوم ضبة ـ وعلى رأسهم فاتك ـ فرصة خروج المتنبي ومعه جنى عمره، وانقضوا عليه طمعاً بما يحمل وهم يدعون ظاهرياً أنهم ينتقمون لشرفهم، وفي الحقيقة لا يبتغون إلا مامعه. والله أعلم بحقيقة الحال.

* * *

ديوان أبي الطيب وشعره

يعتمد الدارس عموماً، وخصوصاً دارس الأدب، على النصوص المسندة إلى أصحابها، إسناداً صحيحاً، حتى تكون النتائج في الأبحاث المدروسة والآثار المحققة والدراسات المقارنة نتائج تطمئن إليها العقول، وتأنس فيها الأذواق الحساسة، وتنفعل بها النفوس المرهفة الطيبة.

وديوان المتنبي هو المرجع الوحيد، بل هو المصدر الوحيد الذي نركن إليه للتعرف على أحوال أبي الطيب إذ إن أبا الطيب نفسه قد أولاه اهتماماً خاصاً لم نره عند غيره من الشعراء الذين سبقوه أو عاصروه أو أتوا بعده. ولعل هذا الاهتمام من أبي الطيب بديوانه من ناحية واهتمام الناس، بهذا الديوان، من ناحية ثانية يجعلنا نقف منه موقفاً مطمئناً نستشف من خلاله تاريخ حياة المتنبي الذي اعتمد في ترتيبه التسلسل الزمني بحيث أتت معظم قصائده في مواضعها حسب تنامي حياة المتنبي منذ أن تفتحت شاعريته إلى أن فارق الحياة سنة ٣٥٤هـ/ ٩٦٥»[١].

---

(١) ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام. عبدالوهاب عزام. دار المعارف مصر. ص٢٢.

ولقد قرأ أبو الطيب شعره على الناس وأملى على «من قرأه مقدمات قصائده بتواريخها، ومن المؤكد أن نسخاً كثيرة من الديوان قد صححت أو قرئت على أصول مقروءة على أبي الطيب نفسه، وأملى شرحاً لبعض أبياته أو لبعض كلمات له، وناقشه فيها من أخذوا عنه خاصة ابن جني»(١). والذي يؤكد ذلك ماقاله أحد شراح أبي الطيب وهو أبو الحسن الواحدي في آخر شرحه: «هذا آخر مااشتمل عليه ديوان أبي الطيب الذي رتبه بنفسه وهو خمسة آلاف وأربعمائة وأربع وتسعون قافية»(٢). وكما جاء في مقدمة نسخة بدار الكتب المصرية رقم (٥٣٠ أدب) «وجميع مافيه من تفسير معنى وشرح غريب واختلاف لغة فهو من إملائه عند القراءة عليه»، أي من إملاء المتنبي نفسه.

أما رواية ديوان المتنبي فقد وافانا بها رواة ثقات، من أمثال محمد بن العباس الخوارزمي، وأبي محمد بن القاسم الجرمي، وأبي الحسن الرخجي، وأبي بكر الشعراني، وعدة من الرواة يطول ذكرهم.

ولا يزال ديوان أبي الطيب يحظى بكل عناية من الرواية

---

(١) أبو الطيب. عبد المجيد دياب. الهيئة المصرية العامة. ص٣٤.
(٢) ذكرى أبي الطيب، ص٢٢.

والشرح والتحقيق. ولقد شرحه واهتم به في العصر الحديث كلٌّ من: ناصيف اليازجي، وعبدالوهاب عزام، والبرقوقي. ولقد بلغ عدد شراح هذا الديوان منذ أن تركه صاحبه إلى أيامنا هذه مايزيد على خمسين شرحاً، إضافة إلى النقاد والدارسين الذين لن تتوقف مسيرتهم عن الدرس والتنقيب والتمحيص.

وأما من حيث نسبة الديوان إلى أبي الطيب فأمر لا غبار عليه، خصوصاً وأن المتنبي، وكما تشير الروايات، قد اهتم بترتيب ديوانه بنفسه، وأن الناس كذلك من محترفي مهنة الأدب في تتبع آثاره، قد رصدوا شعر الرجل لما كان يحمل هذا الشعر من معانٍ جديدة. وما يكاد هذا الشعر يخرج من فم صاحبه حتى يشيع ويصبح على كل شفة ولسان، ولا ريب بعد ذلك أن تجد الناس يتحلقون حول المتنبي، وهو في بيت عليّ بن حمزة الذي حفظ لنا ديوانه من الضياع، و «قد جذبت شخصيته الشباب قبل كل شيء، فرأى خصومه في ذلك فرصة ليذيعوا أن المستمعين إليه كانوا من غير المميزين، ولكنك ترى في الندوة عليّ بن حمزة (نفسه) الذي لم يكن حد لإعجابه بالشاعر وحماسته له»[1]. وكان بيت علي بن حمزة في ربض حميد، في

---

(١) أبو الطيب، لعبد المجيد دياب، ص٣٦.

بغداد، ولا شك أن القارىء يعرف موقع بغداد في ذلك الوقت إذ إنها كانت حاضرة العلم والثقافة والأدب، فانقسم الناس فيها، وفي عموم الديار الإسلامية، فريقين: فريقاً يناصر الشاعر ويتحمس للدفاع عن شعره كل الحماس. وفريقاً يعمل بكل ما أوتي على الكيد له وتبيين مثالبه ورصد كل مافي شعره من الهنات.

لقد كان ابن جني على رأس الفريق الأول إذ إنه بذل كل مافي وسعه كي يظهر أن أبا الطيب فوق الشبهات في شعره، وهو في هذا الميدان لا يبارى لأنه كان على دراية تامة بكل ماقاله أبو الطيب، وذلك لأنه كان قد استوضح من المتنبي نفسه عن كل ماغمض من ألفاظه ومعانيه لأن ابن جني كان من مجالسيه بشكل دائم.

وكان على رأس الفريق الثاني، في الفترة الأخيرة من حياة المتنبي معز الدولة والصاحب بن عباد، والوزير المهلبي، الذين حرضوا ضده شعراء بغداد، لأن المتنبي ترفع عن مدحهم ولم يكترث بهم.

ولكنه لم يرد على أولئك الشعراء بل اكتفى مذكراً في الرد عليهم؛ بما قاله في الذين حاولوا الكيد له وهو في بلاط

سيف الدولة، قبل ذلك وفي مقدمة أولئك أبو فراس الحمداني وابن خالويه والخالديان وفيهم يقول:

أفي كل يوم تحت ضبني شويعر
ضعيفٌ يقاويني قصير يُطاول

وقيل له: لماذا لا تهجو هؤلاء الشعراء في بغداد؟ فقال: لقد فرغت من الرد عليهم حين قلت فيمن هم أعلى منهم مرتبة:

أرى المتشاعرين غروا بذمي
ومن ذا يحمد الداء العضالا

ومن يك ذا فم مر مريض
يجد مُراً به الماء الزلالا

ومن شعراء بغداد، الذين يزيد عددهم على سبعين شاعراً، ابن سكرة وابن لنكك وابن الحجاج.

لقد هيأت المعركة بين مؤيدي أبي الطيب ومنافسيه القاضي الجرجاني المتوفى سنة ٤٩٢هـ فوضع كتابه المشهور «الوساطة بين المتنبي وخصومه» حيث وقف في هذه الوساطة موقفاً بيّن لنا فيه ما للمتنبي وماعليه[1]. وكذلك وضع لنا أبو

---

(١) أدبياً، أما المؤاخذات الشرعية فقد تمحل في تأويلها وردها، كما سيأتي، إن شاء الله

الحسن الإفريقي المعروف «بالمتيم» في أواسط القرن الرابع، كتاباً سماه «الانتصار المنبي عن فضل المتنبي»؛ كما وضع يوسف البديعي المتوفى سنة ١٠٧٣هـ كتابه المعروف «الصُبْح المنبي عن حيثية المتنبي».

ولا يسعنا بعد الحديث عن ديوان المتنبي إلا أن نشير إلى كتابين جديرين بالذكر، ألا وهما: الأول: «أبو الطيب المتنبي في آثار الدارسين» للدكتور عبدالله الجبوري. والثاني «رائد الدراسة عن المتنبي» لكوركيس وميخائيل عواد. ومن خلال هذين الكتابين نتأكد أن ديوان المتنبي قد لقي من العناية مالم يلقه أيُّ ديوان غيره من دواوين الشعراء العرب، من الجاهلية إلى أيامنا هذه، بحيث يزيد عدد الدراسات، التي أنشئت عن شعره ولاتزال، على الألفي مصدر ومرجع، باللغة العربية والأجنبية، «موزعة بين كتاب ورسالة ومقالة ونُبذٍ أُفردت له»[1].

وأما شعر المتنبي، بين دفتي ديوانه، وعلى تعدد شراحه وطبعاته، فإنه يمثل شخصية أبي الطيب تمثيلاً دقيقاً منذ أن بدأت رحلته من الكوفة إلى البادية وبر الشام وحلب ومصر والعراق وفارس والعراق مجدداً، إلى أن قتل على مقربة من بغداد سنة

---

(١) العوامل السياسية في شعر المتنبي، عصام السيوفي، بيروت، ص١٠.

٣٥٤هـ/ ٩٦٥م، كما رأينا عند استعراض سيرته.

أما من جهة مظهره الخارجي (أي المتنبي) فنستطيع أن نتصور أنه رجل نحيل يغلب عليه الضعف والهزال الأمر الذي يجعلك لاتراه لولا مخاطبته إياك لقوله:

كفى بجسمي نُحُولاً أنني رجلٌ
لولا مخاطبتي إياك لم ترني

وهو مع هذا الضعف والنحول، قد أضنى جسمه السقم والتسهيد اللذان كانا يلازمانه، وفي ذلك يقول:

جمعتْ بين جسم أحمد والسُّقْـ
ـم وبين الجفون والتسهيد

وهو كذلك قد أحب كل النحلاء إكراماً لنحولة الجسم الذي كان شغوفاً به وعاشقاً له كقوله:

وإني لأعشق من أجلكم
نحولي وكل امرىء ناحلِ

ولقد اتصف المتنبي بفتوة وشباب ورونق ووسامة وشعْرٍ كث أسود توفر فوق جبينه وناسَ على أذنيه، وقد تصور أن هذه الوفرة لا تحسن إلا على الأبطال وهم في ساحات الوغى:

لا تحسن الوفرة حتى تُرى
منشورة الضفرين يوم القتال

كما أنه قد بكى تلك الوفرة وذاك الشباب بعد أن امتد به العمر وغزاه الشيب، ولم يعد لذاك الوجه رونقه وسماحته ووسامته كقوله:

ولقد بكيتُ على الشباب ولِمَّتي
مُسْوَدَّةٌ ولماء وجهي رونق

وأبو الطيب يكره كثيراً التصنع والمتصنعين فهو لذلك ترك شعره على حاله[1] عندما خالط الشيب لِمَّته:

ومن هوى كلِّ مَنْ لَيْستْ مُمَوَّهَةً
تركتُ لون مشيبي غير مخضوب
ومن هوى الصدق في قولي وفي عملي
رغبتُ عن شَعَرٍ في الرأس مكذوب

وقد يكون الشيب قد غزا شعر المتنبي مبكراً كما يظهر من خلال قوله:

راعتك رائعة البياض بمفرقي
ولو أنها الأولى لراع الأسْحَمُ

---

(١) مع أن السنة هي تغيير الشيب وصبغه بغير اللون الأسود، ولكن أنى للمتنبي أن يفقه هذا، فهو في شُغُلٍ عن السُنة! نسأل الله العافية.

لو كان يمكنني سفرتُ عن الصبى
فـــالشيـــب مـــن قبـــل الأوان تلثُّـــمُ

ولكن هذا الشيب كان عزيزاً على قلب صاحبه لأنه إلفه وحبيبه، وقد رافقه مسيرة الحياة الكبرى في صراعه الطويل، فهو لا يحب مفارقته والعود عنه إلى الصبا على حبه له.

خُلِقتُ ألوفاً لو رجعتُ إلى الصبا
لفارقت شيبي موجع القلب باكيا

* * *

محتويات
ديوان المتنبي



المديح في ديوان المتنبي:

أما محتويات ديوان أبي الطيب فجُلها في المديح، فهو (شاعر المديح) حقاً، أينما حلَّ وارتحل نثر مدائحه على أمراء عصره، وملوكهم، ووجهائهم.

ومديحه هذا صادر من قلب يطمح إلى هبات الممدوح وعطائه، قلَّ هذا العطاء أو كثر، ومن المعلوم «أن أبا الطيب كان يُبالغ في وصف العطاء والجود عند ممدوحيه لما كان في نفسه من طمع الحصول على أكبر قدر من هباتهم، وكلما ازداد طموحه لدى أحدهم، كلما أمعن ابتكاراً للمعاني في السخاء والبذل، وهذا يظهر في مدائحه لكافور الإخشيدي بمصر، فهو الذي لا يردُ سائلاً:

كأن كلَّ سؤالٍ في مسامعه ... قميصُ يوسفَ في أجفان يعقوب
إذا غزته أعاديه بمسألة ... فقد غزته بجيشٍ غير مغلوب

وكقوله:

وقد يهب الجيش الذي جاء غازياً ... لسائله الفرد الذي جاء عافيا»[1]

ويمتاز مديح المتنبي بأمرين:

الأول: أنه يغلو غلواً فاحشاً في تعداد صفات الممدوح

---

(١) مقدمة ديوانه (ص٢٣ ـ ٢٤) شرح مصطفى سبيتي.

التي يجاوز بها حدود المعقول ـ كما سيأتي ـ.

الثاني: أنه مديحٌ موحَّد، وأعني بذلك أنه مناسبٌ لجميع الممدوحين، وليس على المتنبي إلا أن يغيِّر في أسماء ممدوحيه! فممدوحه هو أكرم الناس، وأشجعهم وأجودهم.. إلخ.

فأنت لا تُفرِّق بين ممدوح وآخر بأي صفة، فالجميع قد جُبلوا في نظر أبي الطيب على صفات واحدة.

يقول أبو الطيب في مدح شجاع بن محمد الطائي المنبجي:

مَن في الأنام من الكرام ولا تقل ... من فيكِ شأمُ سوى شجاع يُقصد
أعطى فقلتُ لجوده ما يُقتنى ... وسطا فقلت لسيفه مايولد
وتحيرتْ فيه الصفات لأنها ... أَلْفَت طرائقه عليها تبعد
أسدٌ دم الأسد الهزبر خضابه ... موتٌ فريصُ الموت منه يرعد[1]

فممدوحه هو أكرم الناس وأجودهم وأشجعهم وأكملهم... إلخ!.

وهو يغلو في مديحه إلى درجة فاحشة يجاوز بها حدود المعقول فضلاً عن «المشروع». فمن ذلك ـ مثلاً ـ قوله في مدح

(١) ديوانه (١/ ٩١ ـ ٩٢).

جعفر بن كيغلغ[١]:

من قال لست بخير الناس كلهم
فجهلُـه بـك عنـد النـاس عـاذره

أو شـك أنـك فـردٌ فـي زمـانهـم
بلا نظيرٍ ففي روحي أخاطره

يـا مـن ألـوذ بـه فيمـا أؤملـه
ومـن أعـوذ بـه ممـا أحـاذره

لا يجبر الناس عظماً أنت كاسره
ولا يهيضون عظماً أنت جابره

فهذا القول من أبي الطيب لا يحل ذكره إلا في الرب سبحانه وتعالى؛ فهو وحده الذي يُلاذ ويعاذ به ـ كما سيأتي في كلام العلماء عند تعليقهم على هذين البيتين الأخيرين ـ ولكنه الغلو والشطط من شاعرٍ سخَّر قدراته ومواهبه وتفرده في سبيل مدح مخلوقٍ مثله راجياً نفعه، ونسي أن يُشرف نفسه ويعزها ويرفع ذكرها بمدح مولاه وخالقه ـ سبحانه وتعالى ـ ولو فعل لكان له شأن آخر.

ومن أمثلة هذا المديح المفرط قوله في مدح شجاع بن

---

(١) ديوانه (١/ ٨٧).

محمد الطائي المنبجي[١]:

يفنى الكلام ولا يحيط بفضلكم
أيحيط مايفنى بما لا ينفدُ!

وقوله في مديح الوالي[٢]:

ولو لم أخف غير أعدائه
عليه لبشَّرته بالخلود

والأمثلة في تبيان هذا الغلو الذي توسع فيه أبو الطيب كثيرة جداً، فانظر نماذج منها في هذه المواضع من ديوانه: (١/ ١٠٥ و ١١٠ و ٢١١ و ٢١٢ و ٢٢٥ و ٢٢٩ و ٢٣٣ و ٢٤٨) (٢/ ١٢٠ و ١٣٤ و ١٤٥ و ١٦٣ و ٢٤٠).

وقد صدق ابن رشيق القيرواني في كتابه «العمدة» عندما قال:

«فإذا صرت إلى أبي الطيب صرت إلى أكثر الناس غلواً، وأبعدهم فيه همة، حتى لو قَدَر ما أخلى منه بيتاً واحداً، وحتى تبلغ به الحال إلى ماهو عنه غنى، وله في غيره مندوحة، كقوله:

يترشَّفْنَ من فمي رشفاتٍ هُن فيه أحلى من التوحيد

---

(١) ديوانه (١/ ٩٤).
(٢) ديوانه (١/ ٩٧).

وإن كان له في هذا تأويل ومخرج بجعله التوحيد غاية المثل في الحلاوة بفيه. وقوله:

لو كان ذو القرنين أعمل رأيه   لمَّا أتى الظلمات صِرْنَ شموسا
أو كان صادف رأس عازر سيفُه   في يوم معركة لأعيا عيسى
أو كان لجُّ البحر مثل يمينه   ما انشقَّ حتى جاز فيه موسى

فما دعاه إلى هذا وفي الكلام عوضٌ منه بلا تعلق عليه؟ فكيف إذا قال:

كأني دحوتُ الأرض من خبرتي بها   كأني بنى الإسكندر السد من عزمي

فشبه نفسه بالخالق، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً، ثم انحط إلى الإسكندر»[1].

مدح المتنبي لنفسه:

ومديح المتنبي لا يقتصر على ممدوحيه فقط، بل إنه يخصُّ نفسه بكثير منه يكاد ينسيك مدحه للآخرين، فهو معتز بنفسه كثيراً، لا تخلو قصيدة من قصائده دون أن يُعَرِّج فيها على مديح نفسه وتزيينها بشتى الأوصاف المستحسنة.

ولا ينسى المتنبي ـ أيضاً ـ أن ينال شعره نصيبٌ من هذا الثناء المتفرق بين قصائده.

(١) العمدة (٢/ ٦٣).

يقول أبو الطيب في مدح نفسه:

أنا صخرةُ الوادي إذا ما زُوحمتْ ... وإذا نطقتُ فإنني الجوزاء
وإذا خفيتُ على الغبي فعاذرٌ ... أن لا تراني مقلةٌ عمياء(١)

ويقول:

إني أنا الذهب المعروف مخبره ... يزيد في السَبْك للدينار دينارا(٢)

ويقول مفتخراً على جدته!

ولو لم تكوني بنتَ أكرم والدٍ ... لكان أباك الضخم كونك لي أما(٣)

أي: يكفيك فخراً أنكِ جدتي!!

ويقول مادحاً شعره:

أثني عليك ولو تشاء لقلت لي ... قَصَّرْتَ فالإمْساكُ عني نائِل
لا تجْسُرُ الفُصَحاءُ تُنشِدُ هَهُنا ... بيتاً ولكني الهِزبْرُ الباسِلُ
ما نال أهل الجاهلية كلهم ... شِعْري ولا سمعتْ بسحري بابلُ
وإذا أتتك مذمتي من ناقصٍ ... فهي الشهادةُ لي بأني كامِلُ(٤)

ويقول في مدح أبي العشائر الحسن بن علي العدوي:

---

(١) ديوانه (١/ ١٧٠).
(٢) ديوانه (١/ ٢٠٦).
(٣) ديوانه (١/ ٢٢٠).
(٤) ديوانه (١/ ٢٢٥).

شاعر المجد خدنه شاعر اللفـ ـظ كلانا ربُ المعالي الدِّقاق(١)

أي أنت شاعر المجد وأنا شاعر اللفظ، فكلانا متساويان!

ويقول:

أنا ابنَ من بعضُهُ يفوق أبا الـ ـباحِثِ والنَّجلُ بعضُ من نجله
وإنما يذكر الجدود لهم من نفروه وأنفدوا حيله
فخراً لعضب أروح مشتمله وسمهري أروحُ مُعتقله
وليفخر الفخر إذ غدوت به مرتدياً خيره ومنتعله
أنا الذي بيَّن الإله به الـ أقدار والمرء حيثما جعله
جوهرة تفرح الشراف بها وغُصةٌ لا تُسيغُها السفله(٢)

ويقول في أبياته الشهيرة التي سارت في الآفاق:

سيعلم الجمع ممن ضم مجلسنا بأنني خير من تسعى به قدمُ
أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسمعتْ كلماتي من به صممُ
أنام ملء جفوني عن شواردها ويسهر الخلق جَرَّاها ويختصمُ(٣)

ويقول:

بلغتُ بسيف الدولةِ النُّور رُتْبَة أنَرْتُ بها مابين غَرْبٍ ومَشْرِقِ
إذا شاء أن يلهو بلِحيةِ أحْمَقٍ أراه غُباري ثم قال له الحق

---

(١) ديوانه (١/ ٢٧٩).
(٢) ديوانه (١/ ٢٨٧).
(٣) ديوانه (٢/ ٨٢ ـ ٨٣).

وما كَمَدُ الحُسّاد شيءٌ قصدته ... ولكنه من يزحم البحر يغرق[١]

ويقول مخاطباً سيف الدولة:

وعندي لك الشُرُد السائرا ... ت لا يختصصن من الأرض داراً
قوافٍ إذا سِرْنَ عن مِقْولي ... وثَبْن الجبال وخضن البحارا
ولي فيك مالم يقل قائلٌ ... ومالم يسر قمرٌ حيث سارا[٢]

ويقول:

وما الدهْرُ إلا من رواة قصائدي ... إذا قُلتُ شعراً أصبح الدّهرُ مُنشداً
فسار به من لا يسيرُ مشمراً ... وغنى به من لا يغني مغرداً
أجزني إذا أنشدت شعراً فإنما ... بشعري أتاك المادحون مردداً
ودع كل صوت غير صوتي فإنني ... أنا الطائر المحكي والآخر الصدى
تركت السُّرى خلفي لمن قل مالُه ... وأنعلتُ أفراسي بنُعْماك عسجدا[٣]

ويقول مادحاً نفسه مع سيف الدولة:

لا تطلبن كريماً بعد رؤيته ... إن الكرام بأسخاهم يداً خُتموا
ولاتبال بشِعْرٍ بعد شاعره ... قد أفسد القول حتى أحمد الصمم[٤]

أي لا تستمع لغير شاعر سيف الدولة، الذي هو المتنبي

---

(١) ديوانه (٢/ ١٠٠).
(٢) ديوانه (٢/ ١١٩).
(٣) ديوانه (٢/ ١٢٦).
(٤) ديوانه (٢/ ١٨٣).

نفسه! أما غيره فما أحوجنا عند سماع شعرهم إلى أن نكون صُمًّا!

ويقول في بيت يوضح مدى تعاظم المتنبي الذي يظن نفسه مَلِكاً في صورة شاعر:

وفؤادي من الملوك وإن كا ... ن لساني يُرى من الشعراء[١]

ويقول:

لتعلم مصر ومن بالعراق ... ومن بالعواصم أني الفتى
وأني وفيتُ وأني أبيتُ ... وأني عتوتُ على من عتا
وما كل من قال قولاً وفى ... ولا كل من سيم خسفاً أبى[٢]

أبيات الحكمة في ديوان المتنبي:

كما أننا أطلقنا على المتنبي (شاعر المديح) نظراً لكثرة إنتاجه في هذا الباب فهو شاعر (الحكمة) أيضاً، لأنه من الشعراء الذين اختزلوا تجاربهم في الحياة وتقلباتها ثم حولوها إلى أبيات جميلة مختصرة تؤدي معانٍ كثيرة يُطلق عليها (أبيات الحكمة)، وهي كثيرة جداً في ديوان أبي الطيب، إلى حد أن بعض المؤلفين

---

(١) ديوانه (٢/ ٢٠٩).
(٢) ديوانه (٢/ ٢٧٤).

قد خصها بتأليف مستقل[١].

وأنا ذاكرٌ لك أشهرها مما حفظه الناس، وترنموا بإنشاده في المحافل منذ عصر المتنبي إلى يومنا الحاضر.

فمن ذلك قوله:

الشمسُ من حساده والنصرُ من
قرنائه والسيفُ من أسمائهِ
أين الثلاثةُ من ثلاثِ خِلالهِ
من حُسنه وإبائه ومضائه
مضت الدهورُ وما أتين بمثلهِ
ولقد أتى فعجزن عن نُظرائهِ

وقوله:

فحُبُّ الجبان النفس أوردهُ التقى
وحُبُّ الشجاع النفس أوردهُ الحربا
ويختلفُ الرزقان والفعلُ واحِدٌ
إلى أن يُرى إحسانُ هذا لذا ذنبا

---

(١) منهم: إبراهيم الألمعي في كتابه «من طيبات المتنبي» وعنه نقلت الأمثلة. ومنهم: علي رضا في كتابه «المتنبي: حكمه وأمثاله» وغيرهما.

وقوله:

طوى الجزيرة حتى جاءني خبرٌ
فزعتُ فيه بآمالي إلى الكَذبِ
حتى إذا لم يدع لي صدقهُ أملاً
شرقتُ بالدمع حتى كاد يَشرقُ بي
فليت طالعة الشمسين غائبةٌ
وليت غائبة الشمسين لم تغبِ
وليت عين التي آب النهارُ بها
فداء عين التي زالت ولم تؤب

وقوله:

حُسن الحضارة مجلوبٌ بتطرية
وفي البداوة حسنٌ غيرُ مجلُوبِ

وقوله:

وأظلمُ أهلِ الظلمِ من بات حاسداً
لمن بات في نعمائه يتقلبُ

وقوله:

أعز مكانٍ في الدُّنى سرجُ سابحٍ
وخيرُ جليسٍ في الزمانِ كتابُ

وقوله:

وهل نافعي أن ترفع الحجب بيننا
ودون الــذي أمَّلْــتُ منــك حجــابُ
وفي النفس حاجاتٌ وفيك فطانةٌ
سُكُــوتــي بيــانٌ عنــدهــا وخِطَــابُ
إذا نلــتُ منـك الــود فــالمــالُ هيـنٌ
وكــل الــذي فــوق التــرابِ تــرابُ

وقوله:

ومــا قَتَــل الأحــرار كــالعفــوِ عنهــمُ
ومن لك بالحر الذي يحفظُ اليدا
إذا أنــت أكــرمــت الكــريــم ملكتــه
وإن أنـــت أكـــرمـــت اللئيـــم تمـــردا
ووضعُ الندى في موضع السيف بالعُلا
مُضر كوضع السيف في موضع الندى

وقوله:

أَذُمُّ إلـــى هـــذا الـــزمـــانِ أهيلـــهُ
فــأعلمُهُــمْ فــدمٌ وأحــزمُهُــم وغــدُ
وأكــرمُهُــمْ كلــبٌ وأبصــرُهُــمْ عَــمٍ
وأسهــدُهُــمْ فهــدٌ وأشجعهــم قِــردُ

ومن نكد الدُّنيا على الحر أنْ يرى
عدواً لهُ ما من صداقتِهِ بُدُّ

وقوله:

أودُّ من الأيام ما لا تودُّه
وأشكو إليها بيننا وهي جُنْدُهُ
يُباعدن حِباً يجتمعن ووصلهُ
فكيف بحب يجتمعن وَصدُّهُ
أبى خُلُقُ الدُّنيا حبيباً تُديمُهُ
فما طلبي منها حبيباً ترُدُّه
وأسرعُ مفعولٍ فعلت تغيُّراً
تكلُّفُ شيء في طباعك ضِدُّهُ
وأتعبُ خلق الله من زاد همُّهُ
وقصَّر عما تشتهي النفسُ وجْدُهُ
فلا ينحلل في المجد مالُك كُلُّهُ
فينحل مجدٌ كان بالمال عقدُهُ
وَدَبرهُ تدبير الذي المجد كفُّه
إذا حارب الأعداء والمالُ زندُهُ
فلا مجد في الدنيا لمن قل مالُهُ
ولا مال في الدنيا لمن قل مجدُهُ

وفي الناس من يرضى بميسور عيشه
ومَرْكوبُه رجلاه والثوبُ جلدُهُ

وقوله:

عيدٌ بأيةِ حالٍ عُدت ياعيدُ
بما مضى أم بأمرٍ فيك تجديدُ
أما الأحبةُ فالبيداءُ دُونهمُ
فليت دونك بيداً دُونها بيدُ
لم يترك الدهرُ من قلبي ولا كبدي
شيئاً تُتيّمُهُ عينٌ ولا جيدُ
ياساقييَّ أخمرٌ في كئوسكما
أم في كئوسكما هَمٌ وتسهيدُ
لا تشتر العبد إلا والعصا معهُ
إن العبيد لأنجاس مناكيدُ
ماكنتُ أحسبني أحيا إلى زمنٍ
يُسيءِ بي فيهِ كلبٌ وهو محمودُ

وقوله:

تفضلت الأيامُ بالجمع بيننا
فلما حمدنا لم تُدمنا على الحمد

وقد كنتُ أدركتُ المنى غير أنني
يُعيِّرُني أهلي بإدراكها وحدي
فجدْ لي بقلب إن رحلتُ فإنني
مُخلِّفُ قلبي عند من فضلُهُ عندي
ولو فارقتْ نفسي إليك حياتها
لقلتُ أصابت غير مذمومة العهدِ

وقوله:

تمرستُ بالآفات حتى تركتها
تقولُ أمات الموتُ أم ذُعِر الذعرُ
ولا تحسبن المجد زِقّاً وقينة
فما المجد إلا السيف والفتكة البكرُ
وتركك في الدنيا دويّاً كأنما
تداول سمع المرء أنملُهُ العشرُ

وقوله:

ومن ينفق الساعات في جمع مالهِ
مخافة فقر فالذي فعل الفقرُ

وقوله:

بادٍ هواك صبرت أم لم تصبرا
وبُكاك إن لم يجر دمعُك أو جرى

كم غر صبرُك وابتسامُك صاحباً
لما رآك وفي الحشا ما لا يُرى

وقوله:

قد كان يمنعني الحياءُ من البُكا
فاليوم يمنعهُ البُكا أن يمنعا
حتى كأن لكل عظم رنةً
في جلده ولكل عرق مدمعا

وقوله:

تصفو الحياةُ لجاهلٍ أو غافلٍ
عما مضى فيها وما يُتوقَّعُ
ولمن يُغالِطُ في الحقائق نفسهُ
ويسومُها طلب المحال فتطمعُ
أين الذي الهرمان من بنيانه
ما قومُهُ ما يومُهُ ما المصرعُ
تتخلف الآثارُ عن أصحابها
حيناً ويُدرِكُها الفناءُ فتتبعُ

وقوله:

وما الحسنُ في وجه الفتى شرفاً له
إذا لم يكن في فعله والخلائق

وما بلدُ الإنسان غيرُ الموافق
ولا أهله الأدنون غير الأصادق
وجائزةٌ دعوى المحبة والهوى
وإن كان لا يخفى كلامُ المنافقِ
وما يُوجعُ الحرمانُ من كف حارم
كما يوجعُ الحرمانُ من كف رازق

وقوله:

أروحُ وقد ختمتُ على فؤادي
بحبك أن يحل به سواكا
وقد حملتني شكراً طويلاً
ثقيلاً لا أُطيقُ به حراكا
أُحاذرُ أن يشُق على المطايا
فلا تمشي بنا إلا سواكا
لعل الله يجعلُهُ رحيلاً
يُعينُ على الإقامة في ذراكا
ولو أني استطعت خفضتُ طرفي
فلم أبصر به حتى أراكا
وكيف الصبرُ عنك وقد كفاني
نداك المستفيض وما كفاكا

أتتركني وعينُ الشمس نعلي
فتقطع مشيتي فيها الشراكا
أرى أسفي وماسِرنا شديداً
فكيف إذا غدا السيرُ ابتراكا

وقوله:

إذا اعتاد الفتى خوض المنايا
فأهونُ مايمرُ به الوحولُ
ومن أمرَ الحصون فما عصتهُ
أطاعتهُ الحزونةُ والسُّهولُ
وما للسيف إلا القطع فعلٌ
وأنت القاطعُ البَرُّ الوَصولُ

وقوله:

ومن لم يعشق الدنيا قديماً؟
ولكن لا سبيل إلى الوصالِ
نصيبُك في حياتك من حبيبٍ
نصيبُك في منامك من خيالِ
رماني الدهرُ بالأرزاء حتى
فؤادي في غشاءٍ من نبالِ

فصـرتُ إذا أصـابتنـي سهـامٌ
تكَسَّـرتِ النصـالُ علـى النصـالِ
وهـان فمـا أبـالـي بـالـرزايـا
لأنـي مـا انتفعـت بـأن أُبـالـي

وقوله:

وليـس يصـحُّ فـي الأفهـام شـيء
إذا احتـاج النهـارُ إلـى دليـلِ

وقوله:

ومـن يـكُ ذا فـمٍ مُـر مـريـض
يجـد مُـراً بـه المـاء الـزُّلالا

وقوله:

لعـل عتبـك محمـودٌ عـواقبـه
فـربمـا صحـت الأجسـامُ بـالعلـلِ

وقوله:

وأنـا الـذي اجتلـب المنيـة طـرْفُـهُ
فمـن المطـالـبُ والقتيـلُ القـاتِـلُ؟
وإذا أتتـك مـذمتـي مـن نـاقـصٍ
فهـي الشهـادةُ لـي بـأنـي كـامـلُ

وقوله:

تُـريـديـن لُقيـان المعـالـي رخيصـةً
ولا بُـد دون الشَّهْـد مـن إبـر النحـل

وقوله:

وإذا كـــانـــت النفـــوسُ كِبـــاراً
تعبـــتْ فـــي مُـــرادِهـــا الأجســـامُ

وقوله:

يـا أَعـدل النـاس إلا فـي معـاملتـي
فيك الخصامُ وأنت الخصمُ والحكمُ

أُعيـذُهـا نظـراتٍ منـك صـادقـةً
أن تحسب الشحم فيمن شحمُهُ وَرَمُ

ومـا انتفـاعُ أخـي الـدنيـا بنـاظـره
إذا استـوت عنـده الأنـوار والظُلَـمُ

إذا نظـرتَ نُيُـوب اللَيـثِ بـارزةً
فـلا تظنـن أن الليـث مُبتسـمُ

وقوله:

يـا مـن يعـزُّ علينـا أن نُفـارقَهُـمْ
وجـدانُنـا كُـلَّ شـيء بعـدكُـم عـدَمُ

إن كان سرَّكمُ ماقال حاسدُنا
فما لجُرح إذا أرضاكُمُ ألمُ
كم تطلبون لنا عيباً فيعجزكم
ويكره الله ما تأتون والكرمُ

وقوله:

إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا
أن لا تفارقهم فالراحلون همُ
شرُّ البلاد مكانٌ لا صديق به
وشرُّ مايكسبُ الإنسان مايصِمُ

وقوله:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم
وتأتي على قدر الكرام المكارم
وتعظمُ في عين الصغير صغارها
وتصغرُ في عين العظيم العظائم

وقوله:

وقفتَ وما في الموت شكٌ لواقف
كأنك في جفن الردى وهو نائمُ
تمرُ بك الأبطالُ كلمى هزيمةً
ووجهُكَ وضاحٌ وثَغْرُكَ باسمُ

وقوله:

ومـاتنفـعُ الخيـلُ الكـرامُ ولا القنـا
إذا لـم يكـن فـوق الكـرامِ كِـرامُ

وقوله:

إذا غـامـرت فـي شـرفٍ مَـرُومِ
فـلا تقنـع بمـا دُون النجـوم
فطعـم المـوت فـي أمـرٍ صغيـرٍ
كطعـم المـوت فـي أمـرٍ عظيـم
يـرى الجبنـاء أن العجـز عقـلٌ
وتلـك خـديعـةُ الطبـع اللئيـم
وكـل شجـاعـة فـي المـرء تُغنـي
ولا مثـل الشجـاعـة فـي الحكيـم
وكـم مـن عـائـب قـولاً صحيحـاً
وآفتـهُ مـن الفهـم السقيـم

وقوله:

لا يخـدعنـك مـن عـدو دمعُـهُ
وارحـم شبـابـك مـن عـدو تُـرْحَـمُ
لا يسلمُ الشرفُ الرفيع منِ الأذى
حتـى يُـراق علـى جـوانبـه الـدَّمُ

والظلمُ من شيم النفوس فإن تجد
ذا عِفـــةٍ فلعِلَّـــةٍ لا يظلـــمُ
ومـن البليـة عـذلُ مـن لا يـرعـوي
عــن غيِّـهِ وخِطـابُ مـن لا يفهـمُ
ومــن العــداوة مــاينــالــك نفعُــهُ
ومـن الصــداقـة مـا يضـرُّ ويـؤلـمُ

وقوله:

رمى واتقَّى رميي ومن دون ما اتقى
هوى كاسرٌ كفي وقوسي وأسهمي
إذا ساء فعلُ المرء ساءت ظنونُهُ
وصـــدَّق مــايعتــاده مــن تــوهُّــمِ
وعــادى مُحبِّيــهِ بقــول عُــداتــهِ
وأصبح فـي ليـلٍ مـن الشـكِّ مُظلـمِ
أُصادقُ نفس المرء من قبلِ جسمهِ
وأعــرفُهــا فــي فعلــهِ والتكلُّــمِ
وأحلــمُ عــنْ خِلــي وأَعلــمُ أنــهُ
متى أجزِهِ حِلماً على الجهلِ يندمِ
ومــا كــلُّ هــاوٍ للجميــل بفــاعــلِ
ولا كـــلُّ فعَّـــالٍ لـــه بمتمِّـــمِ

لِمن تَطلُبُ الدنيا إذا لم ترد بها
سُرُورَ مُحبٍّ أو إساءةَ مُجرم

وقوله:

فلما صار ودُّ الناس خِبّاً
جزيتُ على ابتسامٍ بابتسامِ
وصرتُ أشكُ فيمن أصطفيهِ
لعلمي أنه بعضُ الأنامِ
يُحبُّ العاقلون على التصافي
وحبُّ الجاهلين على الوَسَامِ
وآنفُ من أخي لأبي وأُمي
إذا ما لم أجدهُ من الكرامِ
ومن يجد الطريق إلى المعالي
فلا يذر المطي بلا سنامِ
ولمْ أر في عيوبِ الناس شيئاً
كنقص القادرين على التمامِ

وقوله:

وزائرتي كأن بها حياءً
فليس تزور إلا في الظلامِ

بذلت لها المطارف والحشايا
فعافتها وباتت في عظامي
يضيقُ الجلدُ عن نفسي وعنها
فتوسعه بأنواع السِّقامِ
إذا ما فارقتني غسَّلتْنِي
كأنَّا عاكفان على حرامِ
كأن الصبح يطردها فتجري
مدامعُها بأربعة سجامِ
أُراقبُ وقتها من غير شوقٍ
مُراقبة المشوقِ المستهامِ
ويصدقُ وعدُها والصدقُ شرٌ
إذا ألقاك في الكُرَبِ العظامِ
أبِنتَ الدهر عندي كلُّ بنتٍ
فكيف وصلتِ أنتِ من الزِحامِ
جرحتِ مُجرحاً لم يبق فيهِ
مكانٌ للسُّيوفِ ولا السهامِ

وقوله:

وقتٌ يضيعُ وعُمرٌ ليت مُدَّتهُ
في غير أمتِهِ من سالفِ الأممِ

أتـى الـزمـان بنـوهُ فـي شبيبتـهِ
فسـرَّهُـم وأتينـاهُ علـى الهـرَمِ

وقوله:

ومـا الخـوفُ إلا مـا تخـوفـهُ الفتـى
ولا الأمـنُ إلا مـا رآهُ الفتـى أمنـا

وقوله:

الـرأيُ قبـل شجـاعـةِ الشجعـانِ
هـو أولٌ وهـي المحـلُّ الثـانـي
فـإذا اجتمعـا لنفـسٍ حُـرَّة
بلغـت مـن العليـاء كـلَ مكـانِ
ولـربمـا طعـن الفتـى أقـرانـهُ
بـالـرأي قبـل تطـاعُـنِ الأقـرانِ
لـولا العقـولُ لكـان أدنـى ضيغـمٍ
أدنـى إلـى شـرفٍ مـن الإنسـانِ

وقوله:

لا تلـقَ دهـرك إلا غيـر مُكتـرثٍ
مـادام يصحـبُ فيـه رُوحَـك البـدنُ
مـاكـلُ مـايتمنـى المـرء يـدركُـهُ
تجرى الرياحُ بما لا تشتهي السُّفُنُ

وقوله:

صحب الناسُ قبلنا ذا الزمانا
وعناهم من شأنهِ ما عنانا

وتولوا بِغُصةٍ كلُّهمْ منهُ
وإن سَرَّ بعضهم أحيانا

ربما تُحسنُ الصنيع لياليه
ولكنْ تُكدِّرُ الإحسانا

وكأنا لم يرض فينا بريب الدهر
حتى أعانهُ من أعانا

كلما أنبت الزمانُ قناة
ركَّب المرء في القناة سنانا

ومرادُ النفوس أصغرُ من أن
نتعادى فيه وأن نتفانى

غير أن الفتى يُلاقي المنايا
كالحات ولا يُلاقي الهوانا

وإذا لم يكن من الموت بُدٌّ
فمن العجز أن تكون جبانا

كلُّ مالم يكن من الصعب في
الأنفس سهلٌ فيها إذا هو كانا

وقوله:

كفى بك داءً أن ترى الموت شافيا
وحسبُ المنايا أن يكن أمانيا
تمنيتها لما تمنيت أن ترى
صديقاً فأعيا أو عدوا مداجيا
إذا كنت ترضى أن تعيش بذلةٍ
فلا تستعِدَنَّ الحسام اليمانيا

وقوله:

إذا الجودُ لم يُرزق خلاصاً من الأذى
فلا الحمدُ مكسوباً ولا المالُ باقيا
وللنفس أخلاقٌ تدلُّ على الفتى
أكان سخاء ما أتى أم تساخيا

أبيات العزة في ديوان المتنبي:

لأبي الطيب أبيات جميلة تصور مدى عزته وسموه في طلب المعالي، والسعي لإدراكها.

فمن هذه الأبيات التي تصور عزة وسمو المتنبي قوله:

تُحَقِّر عندي همتي كلَّ مطلبٍ ويقصر في عيني المدى المتطاولُ[١]

وقوله:

ومن يبغِ ما أبغي من المجد والعلى تساوا المحابي عنده والمُقاتل[٢]

وقوله:

كن أيها السجنُ كيف شئت فقد وطَّنتُ للموت نفسَ مُعْترف
لو كان سُكناي فيك منقصةً لم يكن الدر ساكن الصدف[٣]

وقوله:

وماسكني سوى قتل الأعادي فهل من زورةٍ تشفي القلوبا[٤]

وقوله في تركه للخمر طلباً للمعالي:

ماأنا والخمر وبطيخةً سوداء في قشرٍ من الخيزران
يُشغلني عنها وعن غيرها توطيني النفس ليوم الطِعان[٥]

وقوله:

وحيدٌ من الخلان في كل بلدةٍ إذا عظُم المطلوب قلَّ المساعد[٦]

---

(١) ديوانه (١/ ٧٨).
(٢) ديوانه (١/ ٨٣).
(٣) ديوانه (١/ ٩٦).
(٤) ديوانه (١/ ٢٣٨).
(٥) ديوانه (١/ ٢٨١).
(٦) ديوانه (٢/ ٧٠).

وقوله:

وفي الناس من يرضى بميسور عيشة ... ومركوبه رجلاه والثوبُ جلده

ولكنَّ قلباً بين جنبيَّ ماللّه ... مدى ينتهي بي في مرادٍ أحُدُّه(١)

وقوله:

فإن أمرض فما مرض اصطباري ... وإن أُحمم فما حُمَّ اعتزامي

وإن أسلم فما أبقى ولكن ... سلمتُ من الحِمَام إلى الحِمَام(٢)

وقوله:

يقولون لي ماأنت في كلِّ بلدةٍ ... وماتبتغي؟ ماأبتغي جَلَّ أن يُسمى(٣)

أبيات الذل في ديوان المتنبي:

ولكن؛ برغم هذه العزة التي يتباهى أبو الطيب بها في شعره، إلا أننا نفاجأ بأنه ينزل إلى دركاتٍ من الذل والاستجداء في سبيل تحقيق أهوائه التي يطمح إليها، وذلك عندما تعييه الحِيَل فلا يستجيب لتوسلاته أحد.

فاسمع إلى أقواله (الذليلة):

من ذلك قوله مخاطباً بدر بن عمار:

---

(١) ديوانه (٢/ ٢١٦).

(٢) ديوانه (٢/ ٢٤٩).

(٣) ديوانه (١/ ٢٢٠).

فاغفر فدى لك واحبُني من بعدها لتَخُصني بعطيةٍ منها أنا[١]

وقوله لكافور بعد أنْ يئس من مواعيده:

أبا المسك هل في الكأس فضلٌ أنالهُ فإني أغني منذ حين وتشرَبُ

وهبت على مقدار كفي زماننا ونفْسي على مقدار كفيك تطلُبُ

إذا لم تنط بي ضيعة أو ولاية فجودُك يكسوني وشغلك يسلب[٢]

وبهذا فإنه يصدق فيه ماقاله أحد الشعراء في هجائه:

أيُ فضل لشاعرٍ يطلب الفـ ـضل من الناس بكرةً وعشيا

عاش حيناً يبيع في الكوفة الما ء وحيناً يبيع ماء المحيا

أبيات التشكي في ديوان المتنبي:

تكثر أبيات التشكي واللوعة في شعر المتنبي نتيجة لتعثر حظه في تحقيق مايصبو إليه من الولايات، ومن الزعامة والمجد الذي قطَّع فيه أيامه ولياليه، فانعكس هذا الفشل المتوالي إلى أسى وحسرة وذمٍ لزمانه ولأهل زمانه الذين خيبوا أمله، ووقفوا أمام طموحاته، فمن ذلك قوله:

كأنَّ الجو قاسى ما أُقاسي فصار سواده فيه شحوباً[٣]

---

(١) ديوانه (١/ ١٩٨).

(٢) ديوانه (٢/ ٢٣١).

(٣) ديوانه (١/ ٢٣٨).

وقوله:

أذُم إلى هذا الزمان أهيله فأعلمهم فَدْمٌ وأحزمهم وغدُ
وأكرمهم كلبٌ وأبصرهم عَمٍ وأسهدهم فهدٌ وأشجعهم قردُ(١)

وقوله في اعتياده فراق الأوطان:

أما الفِراق فإنه ما أَعهد هو توأمي لو أن بيْناً يُولد(٢)

وقوله:

ومن عرف الأيام معرفتي بها وبالناس رَوَّى رمحه غير راحم(٣)

وقوله في ذم الدهر:

إذا ماتأملت الزمان وصَرْفه تيقنتَ أنْ الموت ضربٌ من القتل
وما الدهر أهلٌ أن تُؤمل عنده حياةٌ وأن يُشتاق فيه إلى النسل(٤)

وقوله في ذم الناس:

إذا ما الناس جربهم لبيبٌ فإني قد أكلتهمُ وذاقا
فلم أرَ ودَّهم إلا خداعاً ولم أرَ دينهم إلا نفاقا(٥)

وقوله في ذم الزمان:

---

(١) ديوانه (١/ ٢٤٢).
(٢) ديوانه (١/ ٢٤٥).
(٣) ديوانه (١/ ٢٥٥).
(٤) ديوانه (٢/ ٣٠).
(٥) ديوانه (٢/ ٤٣).

فما ترجي النفوس من زمنٍ　　أحمدُ حاليه غير محمود[١]

وقوله في حاله:

وأتعب خلق الله من زاد هَمُّه　　وقصَّر مما تشتهي النفسُ وجدُهُ[٢]

أي أن أتعب الناس من كثرت طموحاته، وقصَّرت إمكاناته عنها، وهذا هو حال المتنبي!

وقوله مبيناً كثرة تشكيه:

ألا ليت شعري هل أقول قصيدةً　　فلا أشتكي فيها ولا أتعتبُ[٣]

وقوله:

أريد من زمني ذا أن يُبلغني　　ماليس يبلغ من نفسه الزمنُ

لا تلق دهرك إلا غير مكترثٍ　　مادام يصحب فيه روحك البدنُ

ماكل مايتمنى المرء يدركه　　تجري الرياح بما لا تشتهي السفنُ[٤]

وقوله في أبيات جميلة:

صَحِب الناسُ قبلنا ذا الزمانا　　وعناهم من أمره ماعنانا

وتولوا بغُصَّةٍ كلهم منـ　　ـه وإن سَرَّ بعضهم أحيانا[٥]

---

(١) ديوانه (٢/ ٤٥).
(٢) ديوانه (٢/ ٢١٦).
(٣) ديوانه (٢/ ٢٣٠).
(٤) ديوانه (٢/ ٢٣٤ ـ ٢٣٥).
(٥) ديوانه (٢/ ٢٣٧).

وقوله في الشكوى من أهل زمانه:

وكن على حذرٍ للناس تستره ولا يغرك منهم ثغر مبتسم
غاض الوفاء فما تلقاه في عدة وأعوز الصدقُ في الإخبار والقسم[1]

ومنها:

أتى الزمان بنوه في شبيبته فسرهم وأتيناه على الهَرَم

المتنبي والحساد:

بُلي المتنبي بكثير من الشعراء الحُسَّاد، الذين كانوا يعلمون مدى تفوقه عليهم، وحفاوة ذوي الجاه به وبشعره، فأورثهم هذا سعياً حثيثاً في تطلب عثراته، وإقامة الأهوال أمام مطامحه، وساعدهم في هذا بعض ذوي الجاه ممن لم يعبأ بهم أبو الطيب، ولم ينشط لمدحهم.

فنفث أبو الطيب زفرات عديدة في ديوانه، يصور فيها كيد هؤلاء الحساد له.

فمن تلكم الأبيات التي تصور كيد الحساد لأبي الطيب، وتصويره مالاقاه منهم في كل بلدةٍ يستقر فيها نظراً لتفوقه عليهم، قوله لأبي الحسين علي بن أحمد المري وقد أراد

---

(١) ديوانه (٢/ ٢٦٢).

الارتحال عنه:

وقد مُنيتُ بحُسَّادٍ أحاربهم ... فاجعل نداك عليهم بعض أنصاري[(١)]

وقوله:

ولو أني حُسِدتُ على نفيسٍ ... لجُدت به لذي الجَدِّ العثورِ

ولكني حُسدتُ على حياتي ... وما خيرُ الحياة بلا سرورِ[(٢)]

وقوله:

وهكذا كنتُ في أهلي وفي وطني ... إن النفيس غريبٌ حيثما كانا

مُحَسَّد الفضل مكذوبٌ على أثري ... ألقى الكميَّ ويلقاني إذا حانا[(٣)]

وقوله:

وما ليلٌ بأطول من نهارٍ ... يظلُ بلحظ حُسادي مشوبا[(٤)]

وقوله:

فلازلتُ ألقى الحاسدين بمثلها ... وفي يدهم غيضٌ وفي يدي الرِفد[(٥)]

---

(١) ديوانه (١/ ٢١١).
(٢) ديوانه (١/ ٢١٣).
(٣) ديوانه (١/ ٢٢٧).
(٤) ديوانه (١/ ٢٣٩).
(٥) ديوانه (١/ ٢٥٣).

وقوله:

وما كمدُ الحساد شيء قصدته ... ولكنه من يزحم البحر يغرق[١]

وقوله:

أعادى على مايوجب الحبَّ للفتى ... وأهدأ والأفكار فيَّ تجولُ

سوى وجع الحساد داوٍ فإنه ... إذا حل في قلب فليس يحولُ

ولا تطمعن من حاسدٍ في مودةٍ ... وإن كنت تبديها له وتُنيلُ[٢]

وقوله مخاطباً سيف الدولة:

أزل حسد الحساد عني بكبتهم ... فأنت الذي صَيَّرتهم لي حُسّدا[٣]

وقوله له يتشكى من حسد الشعراء الذين لا يساوونه:

أفي كل يوم تحت ضبني شويعرٌ ... ضعيفٌ يقاويني قصيرٌ يُطاول

لساني بنطقي صامتٌ عنه عادل ... وقلبي بصمتي ضاحكٌ منه هازل

وأتعبُ من ناداك من لا تجيبه ... وأغيظ من عاداك من لا تشاكل[٤]

وقوله في استثارة سيف الدولة عليهم:

فليت سيوفك في حاسدٍ ... إذا ماظهرتْ عليهم كئبْ[٥]

---

(١) ديوانه (٢/ ١٠٠).

(٢) ديوانه (٢/ ١١٢).

(٣) ديوانه (٢/ ١٢٦).

(٤) ديوانه (٢/ ١٣٠).

(٥) ديوانه (٢/ ٢٠١).

وقوله في بيان كثرة حاسديه :

قليلٌ عائدي سَقِمٌ فؤادي ‏ ‏ ‏ كثيرٌ حاسدي صعبٌ مرامي[(١)]

أبيات الغزل في ديوان المتنبي:

أما الغزل فليس لأبي الطيب فيه حظ ولا نصيب، فقد شغله عنه تطلبه للمعالي ـ كما يقول ـ، فلم يفرغ لمناجاة غادةٍ حسناء يترنم بمحاسنها في شعره، أويبث آهاته ويشكو عاذليه .

فهمة المتنبي مصروفة إلى التنقل من بلد إلى بلد طلباً لضيعة يترأسها، أو ولاية يتملكها، فلم يكن لديه من الوقت مايصرفه في تتبع الغواني والترصد لهن، وفي هذا يقول[(٢)] :

تركنا لأطراف القنا كلَّ شهوة ‏ ‏ ‏ فليس لنا إلا بهنّ لعاب

ويقول عن الخمر :

يشغلني عنها وعن غيرها ‏ ‏ ‏ توطيني النفس ليوم الطعان[(٣)]

و (غيرها) يعني به التغزل بالنساء والتشبيب بهن .

ومع هذا لم يخل أبو الطيب ديوانه من مقاطع من الغزل الذي يجريه (تكلفاً) لا طبعاً، ويقوله مجاراةً لسُنة الشعراء

(١) ديوانه (٢/ ٢٤٨).
(٢) ديوانه (٢/ ٢٤٢).
(٣) ديوانه (١/ ٢٨١).

الذين يبدأون مديحهم بالتغزل في امرأة متخيلة يتدرجون من خلال وصفها إلى مدح الممدوح.

مثال ذلك قول المتنبي في مدحه المغيث بن علي العجلي:

هام الفؤاد بأعرابية سكنت بيتاً من القلب لم تمدُدْ له طُنُباً
مظلومة القد في تشبيهه غُصُناً مظلومة الريق في تشبيهه ضَرَبَا
بيضاء تطمع في ماتحت حلتها وعزَّ ذلك مطلوباً إذا طُلبا
كأنها الشمس يعيي كفَّ قابِضِهِ شُعاعها ويراه الطرفُ مُقْتَرِبا[1]

فهو قد تدرج إلى مدح (المغيث) من خلال تغزله بهذه الأعرابية المتخيلة.

وانظر أمثلة أخرى مشابهة في ١/ ١٤٩، ١٥٣، ١٥٧، ١٦١، ١٨٩، ٢٢٢، ٢٢٦، ٢٣٠، ٢٥٠، ٢٧٦، و ٢/ ٤٠، ٦٩، ٧٦، ٨٧، ٩٧، ١٠٣، ١٠٧، ١٤٦، ١٨٥، ١٨٨، ٣٠٣، ٣١٣، ٣١٨.

أبيات الهجاء في ديوان المتنبي:

أما الهجاء فإن أبا الطيب لم يكثر منه لشغله بممدوحيه، ولكنه إذا هجا أوجع وأقذع، ويكفيه قصيدته في هجاء ضبة بن

---

(١) ديوانه (١/ ١٤١).

يزيد العتبي التي كانت سبباً في مقتله كما سبق، وهذه القصيدة (البذيئة) قد تعفف عنها (بعض) من طبع ديوان المتنبي فلم يطبعوها كاملة أو خففوا من لهجتها، ومطلعها:

مــاأنصــف القــومُ ضبــة   وأمــــه الطُــــرطُبــــه[1]!

ومن هجاء المتنبي المنكي قوله في ابن كروس الأعور:

فيا ابن كروس يانصف أعمى   وإن تفخر فيا نصف البصير
تُعــادينــا لأنَّــا غيــرُ لُكْــنٍ   وتُبغضنــا لأنَّــا غيــرُ عــورِ
فلو كنت امرأ يُهجى هجونا   ولكن ضاق فِتْرٌ عن مسير[2]

وأما أهاجيه الشهيرة لكافور فهي قد عُلمت لكل ناظرٍ في ديوان المتنبي وسيرته.

فهو قد أقذع جداً في هجائه، والسخرية من لونه الأسود والتهكم بجسده.

ومن طالع سيرة الاثنين ـ أعني كافوراً والمتنبي ـ علم أن المتنبي قد ظلم كافوراً أشد الظلم، وصوره في صورةٍ غير التي قد ذكره بها المؤرخون.

يقول الذهبي عن كافور:

---

(١) ديوانه (١/ ٢٩٣).
(٢) ديوانه (١/ ٢١٣).

«وكان مهيباً، سائساً، حليماً، جواداً، وقوراً، لا يشبه عقله عقول الخدَّام، وفيه يقول المتنبي[1]:

قواصد كافورٍ توارك غيره ومن قصد البحر استقل السواقيا
فجاءت بنا إنسان عين زمانه وخَلَّت بياضاً خلفها ومآقيا

فأقام عنده أربع سنين، وناله مالٌ جزيل، ثم هجاه لآمةً وكُفْراً لنعمته، وهرب على البرية»[2].

وانظر: ١/ ٢٧٤، ٢٧٥، ٢٩٦ و٢/ ٨٥ و٢٧٨، ٢٧٩.

أبيات الرثاء في ديوان المتنبي:

أما الرثاء فأبياته قليلةٌ جداً في ديوان المتنبي، فهو لا ينشط لرثاء أحدٍ إلا أن يكون ذا قرابة لصيقة به، كجدته التي ماتت فرحاً بقدوم كتابه فقال فيها قصيدته الشهيرة التي مطلعها:

ألا لا أري الأحداث مدحاً ولا ذماً فما بطشُها جهلاً ولا كفها حلما
إلى مثل ماكان الفتى مرجعُ الفتى يعود كما أبدي ويُكرى كما أرمى
لك الله من مفجوعة بحبيبها قتيلة شوقٍ غير ملحقها وصما[3]

أو أن يكون المرثي قريباً لسيف الدولة الحمداني الذي

---

(١) ديوانه (٢/ ٢٠٤).

(٢) سير أعلام النبلاء (١٦/ ١٩١).

(٣) ديوانه (١/ ٢١٨).

أولع المتنبي بمدحه، كوالدته التي ماتت فرثاها أبو الطيب بقصيدة مطلعها:

نُعد المشرفية والعوالي وتقتلنا المنُون بلا قتال[١]

ومنها الأبيات الشهيرة:

رماني الدهرُ بالأرزاء حتى فؤادي في غشاء من نبالِ
فصرتُ إذا أصابتني سهامٌ تكسرت النصالُ على النصال
فهان فما أُبالي بالرزايا لأني ما انتفعتُ بأن أبالي

وكذلك رثى أبو الطيب أخت سيف الدولة، التي قيل بأنه كان يخفي حُبَّها، فقال:

ياأخت خير أخ ياأخت خير أب كناية بهما عن أشرف النسب
أجلُ قدرك أن تُسمى مؤبنةً ومن يصفك فقد سمّاكِ للعرب[٢]

ومنها الأبيات الشهيرة:

طوى الجزيرة حتى جاءني خبرٌ فزعتُ فيه بآمالي إلى الكذب
حتى إذا لم يدع لي صدقه أملاً شَرِقتُ بالدمع حتى كاد يشرق بي

ولأبي الطيب مراثٍ أخرى غير ماسبق، ولكنها قليلة جداً قياساً بغيرها من قصائد المديح، فانظر: ١/١١٦، ١١٧ و

---

(١) ديوانه (٢/ ١٢).
(٢) ديوانه (٢/ ١٩٢).

٢/ ٢٧، ٤٤، ٧٣، ١٥٩، ٢٥٥، ٢٥٩.

أبيات الوعظ في ديوان المتنبي:

أما المواعظ فهي كالكبريت الأحمر في ديوان المتنبي، وكيف يعظ الناس من هو راتع في الدنيا صبحه ومساءه، ومن دميت أخفاف راحلته بين مشرق البلاد ومغربها طلباً لكسب دنيوي عاجل تلهى به الشاعر عن العمل الصالح الذي يُلين قساوة القلب، فيجعله يبدع شتى المواعظ المؤثرة.

فالمواعظ غير مناسبة لحال أبي الطيب؛ لأنه شاعر دنيا لا شاعر آخرة، فلا توجد المواعظ سوى في أبيات الرثاء من ديوانه، فهو يقولها مراعاةً للموقف الذي يدعو للتفكر في الموت ومصير الإنسان المقبل، لذا فهو يقولها عادة متبعة عند الشعراء، فهو يتابعهم فيها، ثم لا يلبث أن يعود بعدها إلى مديحه.

فمن ذلك قوله في رثاء محمد بن إسحاق التنوخي:

إنـي لأعلـم واللبيـب خبيـر ... أن الحياة وإن حرصت غرور

ورأيت كلاً ما يُعلل نفسه ... بتعلـة وإلـى الفنـاء يصيـر[١]

قلت: ليت أبا الطيب عمل بهذه الأبيات التي قالها، وعلم

---

(١) ديوانه (١/ ١١٦).

(أن الحياة وإن حرصت غرور)!.

ومن ذلك قوله في رثاء عمة عضد الدولة:

لابـد لـلإنسـان مـن ضجعـةٍ لا تقلب المُضجع عن جنبه[١]

* * *

(١) ديوانه (٢/ ٣٢٤).



أقــوال العلمــاء
في
المتنبــي



١ - شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -:

قال ابن كثير في (البداية والنهاية) في ترجمة المتنبي:
«ومنها قوله[1]:

يا من ألوذ به فيما أؤمله ومن أعوذ به مما أحاذرهُ
لا يجبر الناس عظماً أنت كاسره ولا يهيضون عظماً أنت جابرهُ

وقد بلغني عن شيخنا العلاّمة شيخ الإسلام أحمد بن تيمية رحمه الله أنه كان ينكر على المتنبي هذه المبالغة في مخلوق ويقول: إنما يصلح هذا لجناب الله سبحانه وتعالى. وأخبرني العلامة شمس الدين ابن القيم رحمه الله أنه سمع الشيخ تقي الدين المذكور يقول: ربما قلت هذين البيتين في السجود أدعو الله بما تضمناه من الذل والخضوع»[2].

٢ - ابن قيم الجوزية:

قال - رحمه الله -:

«فتأمل حال أكثر عشاق الصور تجدها مطابقة لذلك، ثم ضع حالهم في كفة، وتوحيدهم وإيمانهم في كفة، ثم زن وزناً

---

(١) أي المتنبي.
(٢) البداية والنهاية (١١/ ٢٧٥).

يرضى الله به ورسوله، ويطابق العدل، وربما صَرَّح العاشق منهم بأن وصل معشوقة أحب إليه من توحيد ربه، كما قال الفاسق الخبيث:

يترشفن من فمي رشفاتٍ هنَّ أحلى فيه من التوحيد»[1]

٣ ـ ابن كثير:

قال رحمه الله:

«وقد ادعى[2] حين كان مع بني كلب بأرض السماوة قريباً من حمص أنه علوي، ثم ادعى أنه نبي يوحى إليه، فاتبعه جماعة من جهلتهم وسفلتهم، وزعم أنه أنزل عليه قرآن، فمن ذلك قوله: «والنجم السيار، والفلك الدوار، والليل والنهار، إن الكافر لفي خسار، امض على سنتك واقف أثر من كان قبلك من المرسلين، فإن الله قامع بك من ألحد في دينه، وضل عن سبيله» وهذا من خذلانه وكثرة هذيانه وفشاره، ولو لزم قافية مدحه النافق بالنفاق، والهجاء بالكذب والشقاق، لكان أشعر الشعراء، وأفصح الفصحاء، ولكن أراد بجهله وقله عقله أن

---

(١) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي (ص٣٥٤) ط دار ابن كثير.

(٢) أي المتنبي.

يقول مايشبه كلام رب العالمين الذي لو اجتمعت الجن والإنس والخلائق أجمعون على أن يأتوا بسورة مثل سورة من أقصر سوره لما استطاعوا. ولما اشتهر خبره بأرض السماوة وأنه قد التف عليه جماعة من أهل الغباوة، خرج إليه نائب حمص من جهة بني الإخشيد وهو الأمير لؤلؤ بيض الله وجهه، فقاتله وشرد شمله، وأسر مذموماً مدحوراً، وسجن دهراً طويلاً، فمرض في السجن وأشرف على التلف، فاستحضره واستتابه وكتب عليه كتاباً اعترف فيه ببطلان ماادعاه من النبوة، وأنه قد تاب من ذلك ورجع إلى دين الإسلام، فأطلق الأمير سراحه، فكان بعد ذلك إذا ذكر له هذا يجحده إن أمكنه وإلا اعتذر منه واستحيا، وقد اشتهر بلفظة تدل على كذبه فيما كان ادعاه من الافك والبهتان، وهي لفظة المتنبي، الدالة على الكذب، ولله الحمد والمنة، وقد قال بعضهم يهجوه:

أي فضل لشاعر يطلب الـ ـفضل من الناس بكرةً وعشيا
عاش حيناً يبيع في الكوفة الما ء وحيناً يبيعُ ماء المحيا

وللمتنبي ديوان شعر مشهور، فيه أشعار رائقة ومعانٍ ليست بمسبوقة، بل مبتكرة شائقة. وهو في الشعراء المحدثين كامرىء القيس في المتقدمين، وهو عندي كما ذكر من له خبرة

بهذه الأشياء مع تقدم أمره»[١].

٤ـ الذهبي:

قال ـ رحمه الله ـ في ترجمة (كافور) من (سير أعلام النبلاء):

«وكان مهيباً، سائساً، حليماً، جواداً، وقوراً، لا يشبه عقله عقول الخدَّام، وفيه يقول المتنبي:

قواصد كافورٍ توارك غيره ومن قصد البحر استقل السواقيا
فجاءت بنا إنسان عين زمانه وخَلَّت بياضاً خلفها ومآقيا

فأقام عنده أربع سنين، وناله مالٌ جزيل، ثم هجاه لآمة وكفراً لنعمته، وهرب على البرية»[٢].

وقال: «وكان مُعْجباً بنفسه، كثير البأو والتيه، فمُقت لذلك»[٣].

٥ـ ابن نُباته.

قال في ترجمته للمتنبي في كتابه «سرح العيون»[٤]:

---

(١) البداية والنهاية (١١/ ٢٧٣ ـ ٢٧٤).
(٢) سير أعلام النبلاء (١٦/ ١٩١).
(٣) سير أعلام النبلاء (١٦/ ١٩٩ ـ ٢٠١).
(٤) ص ٣٧ ـ ٤٤.

«وكان عفا الله عنه قد انفرد بخصال :

منها : الكِبْر الزائد كما ذكره الحاتمي وغيره، وهو مما أحوجه إلى فراق سيف الدولة. وحكى ابن جني قال: قلت للمتنبي وقد أسمعني شعراً في كافور: يعز عليّ ألا يكون هذا في سيف الدولة! قال: إني أنذرته وحذرته فما قبل، وذلك في قولي :

ذا الجود أعط الناس ماأنت مالكٌ

ولا تعطين الناس ماأنت قائل»(١)

٦ـ الشيخ ابن عثيمين:

قال الشيخ ابن عثيمين ـ حفظه الله ـ متحدثاً عن أنواع التشبيه الذي يغلو فيه أصحابه :

«والثالث : كفعل الغلاة في مدح النبي ﷺ أو غيره، مثل قول المتنبي يمدح عبدالله بن يحيى البحتري :

فكن كما شئت يا من لا شبيه له

وكيف شئت فما خلقٌ يدانيكا»(٢)

---

(١) ديوانه (٣/ ١١٧).

(٢) فتح رب البرية بتلخيص الحموية (ص٢٠).



المتنبي
ماله وماعليه



هذا عرض لما قد لفت نظري في ديوان المتنبي من أبيات تضمنت أموراً يُحمد عليها، وأبيات أخرى تضمنت أموراً يُنبه عليها لتُحذر وتُترك، وهذا الموضع هو لبّ رسالتي هذه «المتنبي في الميزان» حيث مررت على جميع ديوانه متفحصاً مافيه ثم خرجت بهذه الموازنة، بادئاً بما له قبل ما عليه، فأقول مستعيناً بالله:

أولاً: ما لـه:

١ ـ فمن ذلك قوله[١] في مرثية له:

أين الأكاسرة الجبابرة الألى كنزوا الكنوز فما بقين ولا بقوا

٢ ـ وقوله[٢]:

ترى القمر الأرضي والمُلك الذي له المُلك بعد الله والمجد والذكر

فالملك لله أولاً ثم لملوك الأرض

٣ ـ وقوله[٣] في رثاء محمد بن إسحاق التنوخي:

ألا إنما كانت وفاة محمد دليلاً على أن ليس لله غالبُ

٤ ـ وقوله[٤]:

---

(١) ديوانه (١/ ٧١).

(٢) ديوانه (١/ ١٠٨).

(٣) ديوانه (١/ ١٢٠).

(٤) ديوانه (١/ ١٣١).

كـأن سخـاءك الإسـلام تخشـى
إذا مـا حلـت عـاقبـة ارتـداد

فعاقبة الردة عن الإسلام معلومة عند المتنبي وهي القتل .

٥ ـ وقوله[١] :

مكافيك من أوليت دين رسوله يداً لا تؤدي شكرها اليدُ والفمُ

فالمكافىء هو الله ـ عز وجل ـ.

٦ ـ ومنه قوله[٢] :

إذا بقيت سالماً أبا علي فالمُلك لله العزيز ثم لي

٧ ـ ويؤمن المتنبي بأن الله على عرشه فوق السماوات السبع، وهذه هي عقيدة أهل السُنة والجماعة كما قال تعالى : ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥ ﴾[٣] .

يقول أبو الطيب[٤] :

سلام الذي فوق السموات عرشه تُخص به ياخير ماشٍ على الأرض

ولكنه أساء في قوله عن ممدوحه بأنه : «خير ماشٍ على الأرضِ»!!

---

(١) ديوانه (١/ ١٦٠).
(٢) ديوانه (١/ ١٧٦).
(٣) سورة طه، الآية: ٥ .
(٤) ديوانه (١/ ٢٠٢).

٨ ـ ومنه قوله[١] معترفاً بأن الخلق صائرون إلى الله:

لا ألحظ الدنيا بعيني وامقٍ ... ولا أبالي قلة الموافق
أيْ كَبْتَ كل حاسد منافق ... أنت لنا وكلنا للخالق

قال تعالى: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ۝٥٣﴾[٢]، وقال تعالى عن المؤمنين بأنهم يقولون: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ۝١٥٦﴾[٣].

٩ ـ ومنه قوله[٤]:

مُشب الذي يبكي الشباب مشيبه ... فكيف توقِّيه وبانيه هادمه

وهذا اعتراف بأن الله هو الذي يجعل البشر شباناً ويجعلهم شيباً، قال تعالى: ﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ۝٥٤﴾[٥].

١٠ ـ ومنه قوله[٦] اعترافاً بقدرة الله ـ عز وجل ـ:

---

(١) ديوانه (١/ ٢٧٣).
(٢) سورة الشورى، الآية: ٥٣.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٥٦.
(٤) ديوانه (٢/ ٤).
(٥) سورة الروم، الآية: ٥٤.
(٦) ديوانه (٢/ ٤٣).

ولـولا قـدرة الخـلاق قلنـا   أعمداً كان خلقك أم وفاقا

١١ ـ ومنه قوله[١] في سيف الدولة عندما سمع المؤذن فقام إلى الصلاة:

ألا أذن فمـا أذكـرت نـاسـي   ولا لينـت قلبـاً وهـو قـاسـي

ولا شُغِل الأمير عن المعالي   ولا عـن حـق خـالقـه بكـاسِ

والذي يود سامع هذين البيتين معرفته هو بماذا ملىء هذا الكأس؟!!.

١٢ ـ ومنه قوله[٢] في ذم المنجمين:

فتبـاً لـديـن عبيـد النجـوم   ومـن يـدعـي أنهـا تعقـلُ

١٣ ـ ومنه ذمه للنصارى الذين كان يحاربهم سيف الدولة وشماتته بهم في أبيات كثيرة، منها قوله[٣]:

تحاول نفس ملك الروم فيها   فتغـديـه رعيتـه العلـوج

أبالغمرات توعدنا النصارى   ونحن نجومها وهي البروج

وقوله[٤]:

---

(١) ديوانه (٢/ ٥١).

(٢) ديوانه (٢/ ٥٩).

(٣) ديوانه (٢/ ٦٠).

(٤) ديوانه (٢/ ٦٣).

حتى أقام على أرباض خرشنةٍ   تشقى به الروم والصلبان والبِيَع

وقوله[١]:

وقد علم الروم الشقيون أننا   إذا ماتركنا أرضهم خلفنا عُدنا

وقوله[٢]:

وأشقى بلاد الله ماالروم أهلها   بهذا ومافيها لمجدك جاحد

وقوله[٣]:

فنحن في جذلٍ والروم في وجلٍ   والبر في شُغُلٍ والبحر في خجل

وقوله[٤]:

وأنك رعت الدهر فيها وريبه   فإن شك فليحدث بساحتها خطبا

فيوماً بخيلٍ تطرد الروم عنهم   ويوماً بجودٍ تطرد الفقر والجدبا

وقوله[٥]:

فالعُرب منه مع الكدري طائرةٌ   والروم طائرة منه مع الحجل

وقوله[٦]:

---

(١) ديوانه (٢/ ٦٧).
(٢) ديوانه (٢/ ٧٠).
(٣) ديوانه (٢/ ٨٩).
(٤) ديوانه (٢/ ٧٨).
(٥) ديوانه (٢/ ٩٠).
(٦) ديوانه (٢/ ٢٠٠).

ويستنصـرانْ الـذي يعبـدانْ   وعنـدهمـا أنـه صُلـب
ليـدفـع مـانـالـه عنهمـا   فيـا للـرجـال لهـذا العجـب

١٤ ـ ومنه قوله[(١)]:

فعُوِّض سيف الدولة الأجر إنه   أجـلُّ مثـاب مـن أجـلِّ مثيـب

وأجلُّ مثيب هو الله ـ عز وجل ـ.

١٥ ـ ومنه قوله[(٢)]:

فمن كان يرضي اللؤم والكفر ملكه   فهذا الذي يرضي المكارم والربَّا

١٦ ـ ومنه قوله[(٣)] ذاكراً الإسلام في شعره:

وأخلص الله للإسلام نصرته   وإن تقلَّـب فـي آلائـه الأمـمُ

١٧ ـ ومنه قوله[(٤)] مادحاً سيف الدولة بقتاله لمن يتكبر عن دين الله:

ومستكبر لم يعرف الله ساعة   رأى سيفـه فـي كفـه فتشهـدا

١٨ ـ ومنه قوله[(٥)]:

هنيئا لضرب الهام والمجد والعلى   وراجيـك والإسـلام أنـك سـالـمُ

---

(١) ديوانه (٢/ ٧٥).
(٢) ديوانه (٢/ ٧٩).
(٣) ديوانه (٢/ ١١٧).
(٤) ديوانه (٢/ ١٢٣).
(٥) ديوانه (٢/ ١٤٢).

١٩ ـ ومنه مدحه للإسلام في قوله[١]:

خضعت لمنصلك المناصل عنوة وأذل دينك سائر الأديان

٢٠ ـ ومنه قوله[٢] مُعرِّضاً بشاربي الخمر وسامعي المعازف من ملوك عصره:

ألهى الممالك عن فخر قفلت به شربُ المدامة والأوتار والنَغَم

ومثله قوله[٣]:

ماالذي عنده تُدار المنايا كالذي عنده تدار الشمول

٢١ ـ ومنه قوله[٤] ذاكراً خلاف الناس في الروح: أقديمة هي أم محدثة؟

تخالف الناس حتى لا اتفاق لهم إلا على شجب والخُلْف في الشجب

فقيل تخلص نفسُ المرء سالمة وقيل تشرك جسم المرء في العطب

والصواب في هذه المسألة التي لم يفصل فيها أبو الطيب هو أنه «قد أجمعت الرسل على أنها ـ أي الروح ـ محدثة مخلوقة، مصنوعة، مربوبة، مدَبَّرة، وهذا معلوم بالضرورة من دينهم أن العالم مُحدث، ومضى على هذا الصحابة والتابعون

---

(١) ديوانه (٢/ ١٧٤).
(٢) ديوانه (٢/ ١٨٢).
(٣) ديوانه (٢/ ١٩١).
(٤) ديوانه (٢/ ١٩٦).

حتى نبغت نابغة ممن قصَّر فهمه في الكتاب والسُنة فزعم أنها قديمة»[١].

قال ابن أبي العز ـ رحمه الله ـ: «اتفق أهل السُنة والجماعة على أنها ـ أي الروح ـ مخلوقة»[٢].

وانظر لزيادة البيان والتفصيل كتاب «الروح» للعلاّمة ابن القيم ـ رحمه الله ـ (ص٢٣٧ ومابعدها).

٢٢ ـ ومنه قوله[٣] فيمن نصرهم سيف الدولة:

فخروا لخالقهم سُجَّداً ولو لم تغث سجدوا للصليب

٢٣ ـ ومنه قوله[٤] في ذم المجوس المانوية:

وكم لظلام الليل عندك من يدٍ تُخبِّر أن المانوية تكذبُ

وتوضيح هذا: أن المانوية هم أصحاب «ماني بن فاتك» الذي ظهر في بلاد الفرس بعد عيسى عليه السلام، فخلط دينه من المجوسية والنصرانية، وزعم أن العالم مركَّب من أصلين قديمين: أحدهما: نور، والآخر: ظلمة. وأنهما أزليان، وأن

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز (ص٥٦٢ ـ ٥٦٣) ط. التركي والأرنؤوط.

(٢) المصدر السابق (ص٥٦٣).

(٣) ديوانه (٢/ ٢٠٠).

(٤) ديوانه (٢/ ٢٢٩).

النور اختص بالخير، والظلمة اختصت بالشر والفساد.. إلى آخر ماقال[١].

فأبو الطيب يريد أن يقول بأن أفعال ممدوحه الخيِّرة كما أنها تقع في النهار، فهي كذلك تقع في الليل، مما يُكذب قول المانوية بأن الظلام هو مصدر الشر والفساد!

٢٤ ـ ومنه قوله[٢] في الموت بأنه أمرٌ لا يُدفع:

مازلت تدفع كل أمر فادحٍ   حتى أتى الأمر الذي لا يُدفع

ومثله قوله[٣]:

قد كان أسرع فارسٍ في طعنة   فرساً ولكن المنية أسرعُ

٢٥ ـ ومنه تسبيحه الله في قوله[٤]:

سبحان خالق نفسي كيف لذتها   فيما النفوس تراه غاية الألم

٢٦ ـ ومنه قوله[٥] في نسبة الأمور وتدبيرها إلى الله وحده:

والأمر لله رب مجتهد   ماخاب إلا لأنه جاهد

---

(١) انظر: «الملل والنحل» للشهرستاني (٢/ ٢٦٩ ومابعدها).
(٢) ديوانه (٢/ ٢٥٦).
(٣) ديوانه (٢/ ٢٥٨).
(٤) ديوانه (٢/ ٢٦٢).
(٥) ديوانه (٢/ ٣٢٢).

٢٧ ـ ومنه افتخاره ببعده عن الفحشاء في قوله[١]:

ماأجدر الأيام والليالي   بأن تقول ماله ومالي
لا أن يكون هذا مقالي   فتىً بنيران الحروب صالي
منها شرابي وبها اغتسالي   لا تخطر الفحشاء لي ببالِ

* * *

(١) ديوانه (٢/ ٢٢٨).

ثانياً: ما عليه:

١ـ فمن ذلك أنه شبه حلاوة رشفات محبوباته لفمه بحلاوة التوحيد بقوله[١]:

يترشفن من فمي رشفات هن فيه أحلى من التوحيد

وهذا البيت يدل على رقة دين المتنبي الذي تساوى عنده التوحيد الذي هو أساس الأعمال برشفات محبوباته، فهو قول (كفري) لا يقيم وزناً لدين الله، بل يسخر منه ويُنزله إلى أسفل المنازل عندما يشبهه بهذه المعصية التي وقع فيها.

وقد حاول بعض المتعصبين لأبي الطيب توجيه هذا البيت الذي يشهد بقلة دينه توجيهاً آخر، فقالوا بأن التوحيد هو نوع من التمور التي تُوجد في العراق!![٢]

وبعضهم اعترف بأن المراد من قوله «التوحيد» هو توحيد الله! ولكنه تمحل في تخريج هذا القول بادعاء أن الدين لا يحكم على الشعر! وأنه يجوز للشاعر ما لا يجوز لغيره من أنواع التجاوزات[٣]!

---

(١) ديوانه (١/ ٦٢).

(٢) انظر: «العُرْف الطيب» لناصيف اليازجي (١/ ١٥).

(٣) انظر: شرح ديوان المتنبي المنسوب لأبي البقاء العكبري(١/ ٣١٥) =

يقول القاضي الجرجاني متبنياً هذا الرأي الشاذ[١] في كتابه «الوساطة بين المتنبي وخصومه».

«والعجب ممن ينقص أبا الطيب ويغض من شعره لأبيات وجدها تدل على ضعف العقيدة وفساد المذهب في الديانة كقوله[٢]:

يترشفن من فمي رشفات   هُنَّ فيه أحلى من التوحيد

وقوله[٣]:

وأبهر آيات التهامي أنه   أبوكم وإحدى مالكم من مناقب

وهو يحتمل لأبي نواس قوله:

قلت والكأس على كـ   ـفي تهوي لالتثامي
أنا لا أعرف ذاك الـ   ـيوم في ذاك الزحام

وقوله[٤]:

ياعاذلي في الدهر ذا هَجْرُ   لا قدرٌ صح ولا جبْرُ

= حيث نقل شيئاً من هذا عن ابن القطاع.

(١) ومثله عبدالرحمن البرقوقي في شرحه لديوان المتنبي (٢/ ٤٠). قال: «مثل هذه المبالغات مقبول مستساغ في مذهب الشعراء..» إلى آخر ماقال!!.

(٢) ديوانه (١/ ٣١٥).

(٣) ديوانه (١/ ١٥٤).

(٤) الموشح: ص٢٧٦.

ماصح عندي من جميع الذي   يُـذكـر إلا المـوت والقَبْـرُ
فاشرب على الدهر وأيامه   فـإنمـا يهلكنـا الـدهـرُ

وقوله[١]:

عـاذلتـي بـالسفـاه والـزجـر   استمعـي مـاأبـث مـن أمـري
بـاح لسـانـي بمضمـر السـر   وذاك أنـى أقـول بـالـدهـرِ
بين رياض السرور لي شِيع   كـافـرة بـالحسـاب والحشـرِ
مـوقنـة بـالممـات جـاحـدة   لمـا رووه مـن ضغطـة القبـر
وليس بعد الممات مُنقلب   وإنما الموت بيضة العقْرِ[٢]

وقوله:

أأتـرك لـذة الصهبـاء نقـداً   لمـا وعـدوه مـن لبـن وخمـر
حيـاة ثـم مـوت ثـم بعـث   حـديث خـرافـة يـا أُمَّ عَمْرو

وقد روي أنهما لديك الجن.

وقوله[٣]:

فدع الملام فقد أطعتُ غوايتي   ونبذتُ مـوعظتـي وراء جـداري
ورأيت إيثار اللذاذة والهوى   وتمتعا من طيب هذي الدارِ
أحرى وأحزم من تنظُّر آجلٍ   ظنـي بـه رَجْـمٌ مـن الأخْبـارِ

---

(١) الموشح: ص٢٧٧.

(٢) بيضة العقر: آخر بيضة تبيضها الدجاجة إذا هرمت.

(٣) الموشح ص٢٧٧، مع تغيير في رواية الأبيات.

إني بعاجل ماترين موكل وسواه إرجافٌ من الآثارِ
ماجاءنا أحدٌ يخبر أنه في جنة مذ مات أو في النارِ

فلو كانت الديانة عاراً على الشعر، وكان سوء الاعتقاد سبباً لتأخر الشاعر، لوجب أن يُمحى اسم أبي نواس من الدواوين، ويحذف ذكره إذا عُدت الطبقات، ولكان أولاهم بذلك أهل الجاهلية، ومن تشهد الأمة عليه بالكفر، ولوجب أن يكون كعب بن زهير وابن الزبعري وأضرابهما ممن تناول رسول الله ﷺ وعاب من أصحابه بكما خرساً وبِكاء[1] مفحمين؛ ولكن الأمرين متباينان، والدين بمعزل عن الشعر»[2]!!

قلت: كيف يكون الدين بمعزلٍ عن الشعر، والله ـ عز وجل ـ قد سمَّى إحدى سور القرآن بسورة (الشعراء) فهل هذا إلا لأجل بيان شمول الإسلام وأحكامه للشعراء وأقوالهم؟! وقد قال سبحانه: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾[3] وقال

---

(١) البكاء: جمع بكيء، وهو من قل كلامه خلقة.
(٢) الوساطة بين المتنبي وخصومه (ص٦٣ ـ ٦٤).
وقد حاول الدكتور عبدالباسط بدر حمل كلام القاضي الجرجاني على محمل حسن في كتابه «مقدمة لنظرية الأدب الإسلامي».
(٣) سورة ق، الآية: ١٨.

ﷺ : «**إن الله قد عفا لأمتي الخطأ والنسيان وحديث النفس مالم تعمل أو تتكلم**» أي أنها عند الكلام أو العمل، تجازى على هذا الكلام أو العمل إن خيراً فخير وإن شراً فشر، ولم يُستثن من ذلك شيء ماعدا الخطأ والنسيان وكلام غائب العقل.

ومسألة (علاقة الدين بالشعر) هي مسألة طال فيها الكلام وتشعب، مابين مؤيد ومعارض منذ أن بدأ الشعراء يمارسون تجاوزاتهم الشرعية في أبياتهم الشعرية، خائضين في ألوانٍ من الردة والمعصية[١].

عندها هب أهل الإسلام معنفين لهم وزاجرين عن ركوب هذا الشطط، ومفارقة الإيمان وأهله، وقابلهم أناسٌ لم يقدروا الله حق قدره، ولم يُعظموا شرعه، نَصَّبوا أنفسهم للدفاع عن تلكم التجاوزات وتبريرها، ثم مفترين مقولة: أن الدين لا علاقة له بالشعر[٢].

---

(١) يعد أبوبكر الصولي من أوائل من خاض في هذه المسألة عندما تصدى للدفاع عن (تجاوزات) أبي تمام في كتابه «أخبار أبي تمام» قائلاً: «ماظننت أن كفراً يُنقص من شعر» (ص١٧٢).

(٢) وقد أطال الدكتور ناصر الخنين في كتابه «الالتزام الإسلامي في الشعر» الكلام حول هذه المسألة المهمة (٢٩٥ ـ ٣١٤) مبيناً تهافت أصحاب =

قال الدكتور ناصر الخنين ملخصاً القول الصواب في هذه القضية[(١)]:

«وهذا الكلام مجمل ينبغي توضيحه وتخصيصه؛ فهناك فرق كبير بين أن يقول شاعر مسلم شعراً فيه كفر وإلحاد ويعلنه ويجاهر به، وبين أن يقول كافر شعراً حسناً لا يحمل معنى الكفر ولا يقود إلى الإلحاد، بل قد يكون فيه خير أو دعوة إليه، فهذا الأخير لا ضير فيه، ولا خلاف في قبول حسنه واستحسانه وسماعه واستنشاده، ولنافي رسول الله ﷺ أسوة حسنة، وذلك حينما استنشد أشعار أمية بن أبي الصلت وسمعها.

أما الصنف الأول: وهو الأشعار الصادرة عن المسلم، فإن إسلام الشاعر لا يشفع لأشعاره جميعها بأن تكون مُسَلَّمة، لا شية فيها، أو مستحقة للاستماع، إنما الذي يستحق ذلك ويفوز به أشعاره الحسنة، المستطابة، التي انطلقت من الإسلام واستنارت به، ولم تصادمه أو تناقضه، فهي بلا ريب مقدمة على

= هذا القول.

ومثله الدكتور عبدالباسط بدر في كتابه «مقدمة لنظرية الأدب الإسلامي» فارجع إليهما إن أردت البسط والزيادة.

(١) الالتزام الإسلامي في الشعر (ص٣٠٢-٣٠٣).

أمثالها من أشعار الكفار، وذلك لمزية إسلام قائلها، ولصدق معانيه، ووضوح تصوره ـ في غالب أحواله ـ لأنه قد استمد هذا الوضوح وذلك الصدق من الإسلام ذاته، لا من خواطره وأهوائه، ولذلك فإن أثرها على المسلمين حينما يسمعونها أو يقرأونها أعظم وأبلغ.

وبذلك يتبين: أن الأشعار الصادرة عن المسلم ـ وفيها كفر أو سخرية بشيء من شعائر الدين ـ لا تستحق الاستماع من المسلمين، بل إنّ نفوسهم تنغلق دونها، وقلوبهم تنقبض منها، فينقص قدرها، ولا يكون لها نصيب من العناية، وإن تكن في الذروة الفنية من حيث الصياغة الشعرية.

ولهذا فقد اختلف العلماء في إقامة الحد على الشاعر المسلم فيما لو جاء في شعره بما يوجب الحد الشرعي.

ولا مرية في أن الأشعار التي تحمل الخُبْث والفسق يبوء صاحبها بها وتحور عليه، ولكن لا ينبغي تمكينه هو أو غيره من إشاعة أشعار الفسق والمجون في أوساط المسلمين، حتى لا يشككهم في دينهم، أو يفسد عليهم أبناءهم أو ينال منهم».

وقال حفظه الله[١] :

«ولو كان الشعر ضرباً من الخيال أو نوعاً من العبث اللفظي الذي لا يلقى له بال، ولا يحمل معنى ولا يؤدي إليه، ولا يؤاخذ صاحبه عليه ـ لما أعار الرسول عليه أفضل الصلاة والتسليم، اهتمامه إلى شعراء قريش، ولَمَا ألقى لأشعارهم بالاً، حينما هجوه وعابوا عليه دعوته . . . ولكن الأمر في ذلك مختلف؛ فقد أهدر دم الذين هجوه، وأمر شعراءه بالرد عليهم، والنيل منهم، جزاءً وفاقاً.

وهل الدين: إلا أوامر وزواجر؟ فكيف يقال بعد ذلك كله: (إن الدين بمعزل عن الشعر؟)، اللهم إلا إذا كان لدى قائل ذلك أو من يُسَلِّم بمذهبه تأويل سائغ لكل ما تقدم، يعضده الدليل ويشفع له التعليل، فإذا لم يكن ثَمَّ شيء من ذلك فقد بطلت تلك النتيجة وسقط ذلك الزعم، بفساد مقدماته وانعدام بيناته».

أقول بعد هذا: إن بيت المتنبي:

يترشفن من فمي رشفات
هن فيه أحلى من التوحيد

(١) المصدر السابق (ص٣٠٦).

هو من الأبيات التي عابه عليها العلماء والنقاد الذين يعلمون خطورة الدفاع عن من يحاد الله في شعره، متذكرين قوله تعالى: ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾[1].

قال التوحيدي في شرحه لهذا البيت:

«يقول: كن يمصصن ريقي لحبهن إياي، كانت تلك الرشفات أحلى في فمي من كلمة التوحيد؛ وهي لا إله إلا الله، وهذا إفراط وتجاوز حد»[2].

وقال ابن رشيق في «العمدة»[3].

«فإذا صرت إلى أبي الطيب صرت إلى أكثر الناس غلواً، وأبعدهم فيه همة، حتى لو قدر ماأخلى منه بيتاً واحداً، وحتى تبلغ به الحال إلى ماهو عنه غني، وله في غيره مندوحة، كقوله:

يترشفن من فمي رشفات هُنَّ فيه أحلى من التوحيد»

وقال ابن القيم ـ رحمه الله ـ:

«فتأمل حال أكثر عشاق الصور تجدها مطابقة لذلك، ثم ضع حالهم في كفة، وتوحيدهم وإيمانهم في كفة، ثم زن وزناً

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٠٩.

(٢) (ص ٣٠).

(٣) (٢/ ٦٣).

يرضى الله به ورسوله، ويطابق العدل، وربما صرَّح العاشق منهم بأن وصل معشوقه أحب إليه من توحيد ربه، كما قال الفاسق الخبيث:

يترشفن من فمي رشفاتٍ   هنَّ فيه أحلى من التوحيد»[1]

٢ ـ ومن ذلك قوله[2]:

كلُّ شيء من الدماء حرامٌ   شربه ما خلا ابنة العنقود

فاسقنيها فدى لعينيك نفسي   من غزالٍ طارفٍ وتليدِ

فهو هنا يُحلل شرب الخمر التي يسميها (ابنة العنقود)، وهذا من التقول على الله بلا علم، بل هو تحليلٌ لما حرَّم الله واعتراضٌ على حكمه تعالى.

وتحريم الخمر ليس مما يُجهل، فهي محرمة بنص الكتاب، وذلك في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ

---

(١) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي (ص٣٥٤) ط دار ابن كثير.

(٢) ديوانه (١/ ٦٤).

عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾[١].

وتحليل الذي عُلم تحريمه بالضرورة من دين هو من الأعمال (الكفرية) التي هوى صاحبها في حفرة سحيقة قادته إليها نفسه المتعالية المتكبرة على شرع الله وأوامره.

٣ـ ومن ذلك قوله[٢]:

أبداً أُقَطِّع البلاد ونجمي   في نُحوسٍ وهمتي في سعودِ

فهو هنا يؤمن بالنجوم وأن لها تأثيراً في أقدار البشر وهذا من الضلال المبين، وقد قال ﷺ: «**من اقتبس علماً من النجوم اقتبس شعبة من السحر، زاد مازاد**»[٣].

والعجيب أن المتنبي قد ناقض قوله هذا في شعرٍ آخر له يقول فيه[٤]:

فتباً لدين عبيد النجوم   ومَن يدعي أنها تعقلُ

ولكنها أخلاق الشعراء الذين يهيمون في كل وادٍ من القول دون ضوابط أو تذكار لما سلف منهم، فقول أمس منقوض بقول اليوم.

---

(١) سورة المائدة، الآيتان: ٩٠، ٩١.

(٢) ديوانه (١/ ٦٤).

(٣) أخرجه أحمد وأبوداود وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٠٧٤).

(٤) ديوانه (٢/ ٥٩).

٤ـ ومنها قوله[١]:

فاطلب العزَّ في لظى ودع الذ ل ولو كان في جنانِ الخلودِ

وهذا امتهان لجنة الخلد الذي وعد الرحمن عباده بالغيب، وهو يعلم أن من دخل الجنة فإنه لا يصيبه فيها ذل ولا خزي، بل هو عزيز في الدنيا وعزيز في الآخرة، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[٢].

وأما داخل النار فإنه في ذل وهوان، قال تعالى عن أصحاب النار: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾[٣].

ومن كان منهم عزيزاً في الدنيا فإن عز الموهوم ينقلب ذلاً وخزياً يوم القيامة، وفي ذلك يقول الله عن (كبار) أهل النار ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ۝٤٩﴾[٤]. أي في الدنيا،، وهذا من باب السخرية به، وزيادة حسرته عندما يتذكر عزه السابق.

قال ابن كثير: «أي قولوا له ذلك على وجه التهكم والتوبيخ»[٥].

---

(١) ديوانه (١/ ٦٤).
(٢) سورة المنافقون، الآية: ٨.
(٣) سورة الشورى، الآية: ٤٥.
(٤) سورة الدخان، الآية: ٤٩.
(٥) تفسير ابن كثير (٤/ ١٥٧).

٥ـ ومن ذلك قوله[١]:

أنا في أمة تداركها الله غريبٌ كصالحٍ في ثمودِ

وهذا القول منه من باب التعاظم الذي عُرف به الشاعر، وإلا فكيف يشبه هذا الشاعر المسرف نفسه بنبي الله صالح ـ عليه السلام ـ؟!

٦ـ ومن ذلك قوله[٢]:

لم يخلق الرحمنُ مثل محمدٍ أحداً وظني أنه لا يَخْلُقُ

ولقد صدق الشاعر في هذا القول لو كان يقصد بمحمدٍ الممدوح رسولَ الله ﷺ، فإنه أفضل الخلق بلا شك كما قال ﷺ: «**أنا سيد ولد آدم ولا فخر**»[٣].

ولكن الشاعر يقصد بمحمدٍ هذا ممدوحه.

وهذا القول: كذب عظيم، وغلو فاحش، لا يتفوه به مسلم، وهو من الافتئات على الله عز وجل.

ولكن؛ قد قلت ـ سابقاً ـ بأن المتنبي يرتكب العظائم في سبيل تحقيق طموحاته الدنيوية الدنيئة.

---

(١) ديوانه (١/ ٦٥).
(٢) ديوانه (١/ ٧٢).
(٣) أخرجه البخاري.

٧ـ ومن ذلك قوله[١]:

ألا كل سمح غيرك اليوم باطلٌ وكل مديحٍ في سواك مُضَيَّعُ

وقد كذب الشاعر، فإن مدح الله عز وجل، ومدح رسله ـ عليهم الصلاة والسلام ـ ليس بمُضيع، بل هو مما يدَّخره الإنسان لنفسه في الآخرة، وقد قال ﷺ لأحد الشعراء لما قال: «إني قد حمدت ربي عز وجل بمحامد ومدح» قال ﷺ: **«أما إن ربك عز وجل يحب المدح»**[٢] أي يحب من عبده أن يمدحه ويحمده، فيثيبه على ذلك ولا يُضيعه.

٨ـ ومن ذلك قوله[٣]:

يا من ألوذُ به فيما أؤمله ومن أعوذ به مما أحاذِره
لا يجبر الناسُ عظماً أنت كاسره ولا يهيضون عظماً أنت جابره

وهذا القول لا يصلح إلا في حق الله تعالى، فهو الملاذ والمستعاذ وهو الذي لا يجبر الناس من كسر، ولا يهيضون من جبر. قال شيخ الإسلام في هذين البيتين: «إنما يصلح هذا

---

(١) ديوانه (١/ ٧٦).
(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٤٣٥) وحسنه الألباني في صحيح الأدب المفرد (٦٦٠).
(٣) ديوانه (١/ ٨٧).

لجناب الله سبحانه وتعالى»[١].

٩ ـ ومن ذلك قوله[٢]:

أنى يكون أبا البرية آدمٌ وأبوك والثقلان أنت محمدُ
يفنى الكلام ولا يُحيطُ بفضلكم أيُحيط مايفنى بما لا ينفدُ

وهذا من الغلو الفاحش في المدح، والذي لا ينفد فضله هو الله سبحانه وتعالى، قال عز وجل: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾[٣].

١٠ ـ ومن ذلك قوله[٤]:

دعوتك عند انقطاع الرجاء والموتُ مني كحبل الوريد
دعوتك لما براني البلاء وأوهن رجلي ثقل الحديد

والمسلم الحق يلتجيء إلى الله عز وجل عند الكُرب ويدعوه عند انقطاع رجائه بالناس، قال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾[٥].

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير (١/ ٢٧٥).
(٢) ديوانه (١/ ٩٤).
(٣) سورة النحل، الآية: ٩٦.
(٤) ديوانه (١/ ٩٨).
(٥) سورة النمل، الآية: ٦٢.

١١ـ ومن ذلك قوله[١] :

يا من نلوذ من الزمان بظله   أبداً ونطرد باسمه إبليسا

والذي يُطْرد إبليسُ باسمه هو المولى عز وجل، قال تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ ﴾[٢] .

وقال ﷺ: «**إذا نودي بالصلاة أدبر الشيطان وله ضُرَاط حتى لا يسمع التأذين**»[٣] فالشيطان يُطرد بذكر الله ـ تعالى ـ.

وهذا البيت من حقه أن يُقال في الله عز وجل وذكره، لا في بشرٍ قد يكون ممن قد تلاعب به الشيطان يمنة ويسرة.

١٢ـ ومن ذلك قوله[٤] :

أو كان صادف رأس عازر سيفه   في يوم معركة لأعيا عيسى

أو كان لج البحر مثل يمينه   ما انشق حتى جاز فيه موسى

أو كان للنيران ضوء جبينه   عُبدت فكان العالمون مجوسا

وهذه الأبيات من السخرية بمعجزات الأنبياء وعدم حفظ مكانتهم عليهم السلام.

فالمتنبي يزعم ـ وهو كاذب ـ أن سيف الممدوح لو ضُرب

---

(١) ديوانه (١/ ١٠٣).
(٢) سورة النحل، الآية: ٩٨.
(٣) أخرجه البخاري.
(٤) ديوانه (١/ ١٠٢).

به عازر[١] لما استطاع عيسى عليه السلام أن يحييه!! ونسي الشاعر أن احياءه عليه السلام كان بإذن الله لا بإذنه. قال تعالى عن عيسى ـ عليه السلام ـ أنه قال: ﴿وَأُحْيِ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[٢].

وهكذا انشقاق البحر لموسى ـ عليه السلام ـ هو بإذن الله.

١٣ ـ ومن ذلك قوله[٣]:

وكأنما عيسى بن مريم ذكره ... وكأن عازر شخصه المقبورُ

وهذا من احتقار الأنبياء ـ عليهم السلام ـ عندما يشبه ممدوحيه بهم.

١٤ ـ ومن ذلك قوله[٤]:

فأعيذ إخوته برب محمدٍ ... أن يحزنوا ومحمدٌ مسرورُ
أو يرغبوا بقصورهم عن حفرةٍ ... حَيَّاه فيها منكرٌ ونكيرُ

---

(١) عازر ـ كما يقول النصارى ـ هو الرجل الذي أحياه عيسى ـ عليه السلام ـ لأنه صديقه، وهذا من الإسرائيليات التي لا تُصدق ولا تُكذب (انظر: تفسير القرطبي ٤/ ٩٤) وقد فُتن شعراء الحداثة ممن يدعون الإسلام بعازر هذا، وجعلوه رمزاً في أشعارهم لكل انبعاث بعد الممات تقليداً منهم لشعراء النصارى.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٤٩.

(٣) ديوانه (١/ ١١٧).

(٤) ديوانه (١/ ١١٨).

وهذا القول من الافتراء وادعاء علم الغيب، حيث يزعم أن هذا الميت سيحييه منكر ونكير في قبره! وهو بهذا القول يزعم أنه يعزي ويواسي أهله.. وكان الأحرى به أن يعزيهم بما ثبت في السُنة الصحيحة، من الدعوة إلى الصبر والرضا بالقدر.

١٥ ـ ومن ذلك قوله(١):

ملكٌ تكون كيف شاء كأنما يجري بفضل قضائه المقدورُ

وهذا ادعاء سخيف، حيث يزعم أن القدر يوافق ممدوحه في كل مايريد. وهذه لم تكن للأنبياء وهم أشرف الخلق وأفضلهم، فكيف بغيرهم ممن قد يكون من السفلة!؟ وقد قال تعالى لأشرف خلقه ﴿ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ ﴾(٢).

١٦ ـ ومن ذلك قوله(٣):

فما ترزق الأقدار من أنت حارمٌ ولا تحرم الأقدار من أنت رازق

وهذا القول لا يصلح إلا لله عز وجل، فهو الذي إذا أراد رزق عبد من عباده فلن يحرمه أحدٌ هذا الرزق، وإذا أراد حرمانه

(١) ديوانه (١/ ١١٩).
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٨٨.
(٣) ديوانه (١/ ١٢٢).

منه فلن يرزقه سوى الله. قال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾[١].

١٧ ـ ومن ذلك قوله[٢]:

إن المنية لو لاقتهم وقفت   خرقاء تتهم الإقدام والهربا

وهذا غلو قد تجاوز الحد، حيث يزعم أبو الطيب أن الموت يفرق ويخاف من ممدوحيه، والله قد أخبرنا بأن الناس هم الذين يفرون من الموت الذي هو ملاقيهم لا محالة ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾[٣].

١٨ ـ ومن ذلك قوله[٤]:

ولو يممتهم في الحشر تجدو   لأعطوك الذي صلوا وصاموا

وهذا كذب من القول لا يجيده غير الشعراء! فهو يُخبر عن كرم ممدوحيه بأنه قد تجاوز الحد، وأنك لو استمنحتهم شيئاً يوم الحشر، فإنهم ـ من شدة كرمهم ـ سيعطونك صلاتهم وصيامهم!! والله يقول عن ذلك اليوم العظيم: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ

---

(١) سورة يونس، الآية: ١٠٧.
(٢) ديوانه (١/ ١٤٣).
(٣) سورة الجمعة، الآية: ٨.
(٤) ديوانه (١/ ١٤٧).

يغنيه﴾[١].

١٩ ـ ومن ذلك قوله[٢]:

وأُعطيت الذي لم يُعط خلقٌ عليك صلاة ربك والسلام

وهذا القول لا يصلح إلا لنبينا محمد ﷺ فهو الذي أعطي مالم يُعط خَلْقٌ غيره، فقد قال ﷺ: «**أعطيت خمساً لم يعطهن نبي قبلي**»[٣] وهو الذي يُصلى عليه ويُسلم، هو وإخوانه الرسل عليهم الصلاة والسلام، وأما غيرهم فلا يخص بصلاة أو سلام.

قال ابن القيم رحمه الله بعد ذكره الخلاف في هذه المسألة:

«وفصل الخطاب في هذه المسألة: أن الصلاة على غير النبي ﷺ؛ إما أن تكون على آله وأزواجه وذريته أو غيرهم، فإن كان الأول؛ فالصلاة عليهم مشروعة مع الصلاة على النبي ﷺ، وجائزة مفردة.

وأما الثاني: فإن كان الملائكة وأهل الطاعة عموماً الذين يدخل فيهم الأنبياء كلهم وغيرهم؛ جاز ذلك أيضاً، فيقال:

---

(١) سورة عبس، الآيات: ٣٤ ـ ٣٧.

(٢) ديوانه (١/ ١٤٨).

(٣) أخرجه البخاري، ومسلم.

«اللهم صل على ملائكتك المقربين وأهل طاعتك أجمعين»، وإن كان شخصاً معيناً، أو طائفة معينة؛ كره أن يتخذ الصلاة عليه شعاراً لا يخل به. ولو قيل بتحريمه لكان له وجه. ولا سيما إذا جعله شعاراً له، ومنع منه نظيره، أو من هو خير منه، وهذا كما تفعل الرافضة بعلي رضي الله عنه حيث ذكروه قالوا: عليه الصلاة والسلام، ولا يقولون ذلك فيمن هو خير منه، فهذا ممنوع لا سيما إذا اتخذ شعاراً لا يخل به، فتركه حينئذ متعين، وأما إن صلى عليه أحياناً بحيث لا يجعل ذلك شعاراً كما يصلي على دافع الزكاة، وكما قال ابن عمر للميت:

«صلى الله عليه»، وكما صلى النبي ﷺ على المرأة وزوجها، وكما روي عن علي من صلاته على عمر، فهذا لا بأس به.

وبهذا التفصيل تتفق الأدلة، وينكشف وجه الصواب، والله الموفق»[1].

٢٠ ـ ومن ذلك قوله[2]:

فلقد دهشتُ لما فعلتَ ودونه   مايُدهش المَلَك الحفيظ الكاتبا

---

(١) جلاء الأفهام (ص٦٦٣ ـ ٦٦٤) تحقيق: مشهور سلمان.
(٢) ديوانه (١/ ١٥٧).

وهذا افتراء على ملائكة الله الكرام، حيث زعم أنها تدهش من أفعال ممدوح المتنبي! والكتبة الحافظون لا يدهشون، وإنما يحصون أعمال بني آدم عليهم. قال تعالى: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾[١]. وقال عز وجل: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝ ﴾[٢].

٢١ ـ ومن ذلك قوله[٣]:

نفذ القضاء بما أردت كأنه   لك كلما أزمعت أمراً أزمعا

والقضاء لم يجر بما يشتهي أنبياء الله ـ عليهم الصلاة والسلام ـ فكيف بمن سواهم ممن يزعم المتنبي أن القضاء ينفذ حسب مايريدون!؟

٢٢ ـ ومن ذلك قوله[٤]:

من يزره يزر سليمان في المـ   ـلك جلالاً ويوسفاً في الجمال

وقد سبق مثل هذا، حيث شبه المتنبي ممدوحيه بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام ـ وهو من الغلو.

---

(١) سورة ق، الآية: ١٨.
(٢) سورة الانفطار، الآيات: ١٠ ـ ١٢.
(٣) ديوانه (١/ ١٦٤).
(٤) ديوانه (١/ ١٦٦).

٢٣ ـ ومن ذلك قوله[١]:

رجلٌ طِيْنه من العنبر الورد   وطينُ العباد من صلصال
فبقيات طينه لاقت الماء   فصارت عذوبة في الزلال

وهذا من غلوه المعتاد في ممدوحيه في تصويرهم بصورة غير البشر الآخرين؛ قاصداً هباتهم وعطاياهم!

٢٤ ـ ومن ذلك قوله[٢]:

طلبنا رضاه بترك الذي   رضينا له فتركنا السجودا

فقد رضي المتنبي أن يسجد لممدوحه ـ والعياذ بالله ـ والسجود ـ كما هو معلوم ـ لا يجوز لغير الله، وعندما عاد معاذٌ ـ رضي الله عنه ـ من اليمن وكان قد شاهدهم يسجدون لعظمائهم، أراد أن يسجد لرسول الله ﷺ فنهاه النبي ﷺ، عن ذلك[٣].

٢٥ ـ ومن ذلك قوله[٤]:

لو كان علمك بالإله مقسَّماً   في الناس مابعث الإلهُ رسولاً
لو كان لفظك فيهم ماأنزل الـ   ـفرقان والتوراة والإنجيلا

---

(١) ديوانه (١/ ١٦٨).
(٢) ديوانه (١/ ١٧٧).
(٣) أخرجه أحمد وابن ماجهْ، وصححه الألباني في الصحيحة (١٢٠٣).
(٤) ديوانه (١/ ١٩٢).

وهذا غلوٌ فاحش، وقول (كفري) يقشعر جلد المؤمن من سماعه، حيث زعم الشاعر لممدوحه أن علمه كعلم الأنبياء، وأن لفظه كالقرآن والإنجيل والتوراة!! نعوذ بالله من الكفر والضلال.

٢٦ ـ ومن ذلك قوله(١):

متى أحصيتُ فضلك في كلام فقد أحصيتُ حبات الرمال
وإن بها وإن به لنقصاً وأنت لها النهاية في الكمال

وهذا من الغلو في المدح، وإلا فإن النهاية في الكمال ليست إلا لله عز وجل، فهو سبحانه «السيد الذي كمل في سؤدده، العليم الذي قد كمل في علمه، والحكيم الذي قد كمل في حكمته، وهو الذي قد كمل في أنواع الشرف والسؤدد»(٢).

٢٧ ـ ومن ذلك قوله(٣):

يابدر إنك والحديث شجونُ من لم يكن لمثاله تكوينُ
لعظمت حتى لو تكون أمانة ماكان مؤتمناً بها جبرينُ

وهذا القول فيه تنقص من جناب جبريل ـ عليه السلام ـ

---

(١) ديوانه (١/ ١٩٤).
(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ٦٠٩ ـ ٦١٠).
(٣) ديوانه (١/ ٢٠١).

الذي أخبر الله عنه بأنه: ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾﴾[(١)].

فالله عز وجل قد أخبرنا بأمانة جبريل ـ عليه السلام ـ وأنه غير متهم، والمتنبي يزعم أنه قد يخون الأمانة!! وهذا القول من الأقوال (الكفرية)، ولا يشك في هذا مسلم.

٢٨ ـ ومن ذلك قوله[(٢)]:

مايرتجى أحدٌ لمكرمةٍ   إلا الإله وأنت يابدرُ

لقد أخطأ المتنبي عندما ساوى بين ممدوحه وبين الله عز وجل بحرف (الواو) الذي يقتضي المشاركة والمساواة، وكان الصواب أن يعطف بحرف (ثم) الذي يُنزل المخلوق عن رتبة الخالق عز وجل. وعندما قال رجل للنبي ﷺ: ماشاء الله وشئت، قال له ﷺ: «**أجعلتني لله نداً**»[(٣)].

٢٩ ـ ومن ذلك قوله[(٤)]:

حسبك الله ماتضل عن الحق   ولا يهتدي إليك آثامُ

---

(١) سورة التكوير، الآيتان: ٢٠، ٢١.
(٢) ديوانه (١/ ٢٠٧).
(٣) أخرجه أحمد، وصححه الألباني في صحيحه (١٣٩).
(٤) ديوانه (١/ ٢١١).

فهو يدعي العصمة لممدوحه، فهو دائماً على الحق، وهو دائماً لا يرتكب الآثام!

٣٠ـ ومن ذلك قوله[١]:

فأصبحتُ أستسقي الغمام لقبرها وقد كنتُ أستسقي الوغى والقنا الصُمَّا

وأحوال القبور وساكنوها لا تؤثر فيهم الأمطار ولا السيول، وإنما هي رحمة الله عز وجل ثم العمل الصالح، فمن عمل خيراً فُسح له في قبره وأتاه من الجنة مايسره ولو كان مدفوناً وسط صحراء محرقة، ومن عمل شراً ضُيق عليه في قبره، وأتاه من سموم النار مايسوؤه، ولو كان مدفوناً وسط حدائق ذات بهجة.

وقد أخبر ﷺ عن المؤمن بعد موته بأنه «يُفسح له في قبره مدَّ بصره» وأما الكافر والمنافق فإنه: «**يُضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه**»[٢] نسأل الله العفو والعافية.

٣١ـ ومن ذلك قوله[٣]:

---

(١) ديوانه (١/ ٢١٩).

(٢) أخرجه أبوداود وغيره، وصححه الألباني في «أحكام الجنائز» (ص١٥٩).

(٣) ديوانه (١/ ٢٢٥).

وأما وحقك وهو غاية مقسم   للحق أنت وماسواك الباطلُ

وهذا قسم بغير الله، وهو شرك أصغر حذرنا منه رسول الله ﷺ بقوله: «**من حلف بغير الله فقد أشرك**» وقال ﷺ: «**من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت**» وقال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: «**لأن أحلف بالله كاذباً خير من أحلف بغير الله صادقاً**» وهذا من كمال فهمه ـ رضي الله عنه ـ لأن الحلف بالله كذباً معصية، والحلف بغيره ولو كان المرء صادقاً فيه شرك، وفرقٌ فيما بينهما.

والقسم بغير الله هو مما تساهل فيه الشعراء قديماً وحديثاً فهم يُقسمون بالمحبوب وبصفاته الخَلقية والخُلقية قاصدين تعظيمه بزعمهم.

٣٢ ـ ومن ذلك قوله[1]:

وترى المروة والفتوة والأبو   ة في كل مليحة ضراتها

هن الثلاث المانعاتي لذتي   في خلوتي لا الخوف من تبعاتها

فقد صرح المتنبي هنا أن الذي يمنعه من اللذات ليس الخوف من الله عز وجل، وإنما هو المروة والفتوة والأبوة. وكان الأجدر به أن يمتنع عن اللذات خوفاً من الله ليُكتب له أجر

---

(١) ديوانه (١/ ٢٣٠).

هذا الامتناع. قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٤١ ﴾[1].

٣٣ ـ ومن ذلك قوله[2]:

فآجرك الإله على عليلٍ ... بعثت إلى المسيح به طبيبا

وهذا يلحق بسابقه، ففيه تنقص لأنبياء الله ـ عليهم السلام ـ عندما يشبههم بغيرهم، أو يبتذل ذكرهم.

٣٤ ـ ومن ذلك قوله[3]:

يبني به ربنا المعالي ... كما بكم يغفر الذنوبا

والذنوب لا تُغفر بأحد، إنما يغفرها الله برحمته، قال تعالى: ﴿ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾[4].

٣٥ ـ ومن ذلك أنه يعتقد أن علياً رضي الله عنه هو الوصي بعد رسول الله ﷺ، وهذه عقيدة الشيعة الإمامية والزيدية، يقول المتنبي في مدح طاهر بن الحسين[5]:

---

(١) سورة النازعات، الآيتات: ٤٠ ـ ٤١.
(٢) ديوانه (١/ ٢٤١).
(٣) ديوانه (١/ ٢٦١).
(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٣٥.
(٥) ديوانه (١/ ٢٧٠).

هو ابن رسول الله وابن وصيه وشبههما شبهتُ بعد التجارب

٣٦ـ وهو يذم أحد الأموات الذين يبغضهم بقوله[(١)] :

قالوا لنا: مات إسحاق! فقلت لهم: هذا الدواء الذي يشفي من الحُمق
إن مات مات بلا فقد ولا أسف أو عاش عاش بلا خَلْقٍ ولا خُلُقِ
منـــه تَعَلّـــم عبـــــدٌ شق هامته خون الصديق ودس الغدر في الملقِ
وحلف أَلف يمين غير صادقة مطرودة ككعوب الرمح في نسقِ
مازلت أعرفه قرداً بلا ذنب خلواً من الباس مملوءاً من النزقِ
كريشة في مهب الريح ساقطة لا تستقـر علـى حـال مـن القلـقِ
تستغرق الكف فوديه ومنكبه فتكتسي منه ريح الجورب العرقِ
فسائلو قاتليه كيف مات لهم موتاً من الضرب أم موتاً من الفرقِ

وهذا القول دليل على وقاحة المتنبي، حيث تعرض للأموات في قبورهم بهذا الهجاء المر، والرسول ﷺ يقول: «**إذا مات صاحبكم فدعوه. لا تقعوا فيه**»[(٢)].

٣٧ـ ومن ذلك قوله[(٣)] :

---

(١) ديوانه (١/ ٢٧٥).

(٢) أخرجه أبو داود، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٨٥) أما حديث: «**اذكروا محاسن موتاكم**» فضعيف.

(٣) ديوانه (١/ ٢٧٨).

مـارآهـا مكـذب الـرسـل إلا صدق القول في صفات البُراق

فهو يشبه فرسه بالبُراق الذي ركبه رسول الله ﷺ ليلة الإسراء والمعراج، وقال ﷺ عنه بأنه: «**فوق الحمار ودون البغل، يقع خطوه عند انقضاء طَرْفه...**»[١].

فالبراق خلق من خلق الله لا يشابهها شيء من حيوانات الدنيا، مهما ادعى المتنبي خلاف ذلك.

٣٨ ـ ومن ذلك قوله[٢]:

يـاراحـلاً كـلُ مـن يـودعـه مـــودعٌ دينـــه ودنيــــاه

والراحل أو المسافر لا يأخذ معه إلا دينه هو، أما دين المودِّعين فهو باقٍ معهم؛ لأنه مجموعة من الأقوال والأعمال الملازمة للإنسان.

وقد أمر ﷺ أن يُقال للمسافر عند سفره «**أستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك**»[٣] لأنه محتاج إلى أن يحفظ الله دينه في سفره، لا أن يحفظ هو دين الآخرين، كما يزعم المتنبي!

٣٩ ـ ومن ذلك قوله[٤]:

---

(١) أخرجه البخاري، ومسلم.
(٢) ديوانه (١/ ٢٩٠).
(٣) أخرجه أبوداود وغيره وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٢٢٦٥).
(٤) ديوانه (٢/ ٥٣).

لحبُّ ابن عبدالله أولى فإنه   به يُبْدأ الذكرُ الجميلُ ويُخْتم

والذي يُبدأ به الذكر الجميل ويُختم: الله ـ عز وجل ـ فقد علمنا رسوله ﷺ أن نبدأ أعمالنا باسمه تعالى، وعلمنا أن نختتم ذلك بذكره تعالى، سواء بالحمد أو الاستغفار.

٤٠ ـ ومن ذلك قوله[١]:

فلا موت إلا من سنانك يتقى   ولا رزق إلا من يمينك يُقسم

وأسباب الموت كثيرة، كما قيل:

تعددت الأسباب والموت واحد

لا كما يزعم المتنبي بأنه لا موت إلا من سنان ممدوحه.

وأما الرزق فهو من عند الله عز وجل، قال سبحانه: ﴿فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ﴾[٢]. وقال: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾[٣]. ويصدق على المتنبي قوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[٤]. فهو يعلم أن لا رازق

---

(١) ديوانه (٢/ ٥٦).

(٢) سورة العنكبوت، الآية: ١٧.

(٣) سورة فاطر، الآية: ٣.

(٤) سورة النحل، الآية: ٨٣.

إلا الله، ثم هو ينسب ذلك إلى غيره.

٤١ ـ ومن ذلك قوله عن خيمة سيف الدولة[١]:

فما اعتمد الله تقويضها ولكن أشار بمَا تفعلُ

وهذا من الافتراء على الله أنه أراد تقويضها قاصداً توجيه سيف الدولة إلى ملاقاة أعدائه!

٤٢ ـ ومن ذلك قوله[٢]:

ولستُ أبالي بعد إدراكي العلى أكان تراثاً ماتناولتُ أم كسبا

فهو يهدف إلى العُلى، سواء ورثه من آبائه أو كان كسباً له قد اجتهد في تحصيله، وهذا العُلى الذي يعنيه المتنبي هو علو الصيت بين الناس، وتولي الضِيع والإمارات، فهو الذي أجهد فيه نفسه، وضيع عمره ـ كما سبق ـ.

٤٣ ـ ومن ذلك قوله في ممدوحه[٣]:

الذي ليس عنه مُغنٍ ولا منه بديل ولا لما رام حام

وهذا القول لا يصلح إلا لله عز وجل، فهو الذي ليس عنه مغنٍ ولا منه بديل. كما قال ﷺ: «**الحمد لله كثيراً طيباً مباركاً فيه**

---

(١) ديوانه (٢/ ٥٨).
(٢) ديوانه (٢/ ٧٧).
(٣) ديوانه (٢/ ١٠٣).

غير مكفي ولا مودَّع ولا مستغنىً عن ربنا»[١].

٤٤ ـ ومن ذلك قوله[٢]:

فومن أُحب لأعصينك في الهوى   قسماً به وبحسنه وبهائه

وهذا قسمٌ بغير الله، وقد مضى أنه محرَّم.

٤٥ ـ ومن ذلك قوله[٣]:

وكيف تعلك الدنيا بشيء   وأنت لعلة الدنيا طبيبُ

وهذا من الغلو في المدح، حيث جعل ممدوحه طبيباً (لجميع) علل الدنيا، وهذا لا يكون إلا لله عز وجل، فهو «الطبيب»[٤] سبحانه، وهو الذي يشفي عباده، ويصلح أحوالهم، كما قال إبراهيم ـ عليه السلام ـ ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾[٥].

٤٦ ـ ومن ذلك قوله[٦]:

---

(١) أخرجه البخاري (٩/ ٥٨٠ فتح).
(٢) ديوانه (٢/ ١٠٣).
(٣) ديوانه (٢/ ١١٥).
(٤) ورد هذا في قوله ﷺ: «الله الطبيب» أخرجه أبوداود وصححه الألباني في الصحيحة (١٥٣٧).
(٥) سورة الشعراء، الآية: ٨٠.
(٦) ديوانه (٢/ ١٢٣).

تظل ملوك الأرضِ خاشعة له تفارقه هلكى وتلقاه سجَّدا

والسجود لغير الله لا يجوز ـ كما سبق ـ.

٤٧ ـ ومثله قوله[١]:

تخر له القبائل ساجدات وتحمده الأسنة والشفار

٤٨ ـ ومن ذلك قوله[٢]:

وما لاقني بلدٌ بعدكم ولا اعتضت من رب نعماي برب

ونقول لأبي الطيب: حتى الله لم تعتض به عن ممدوحك؟! قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾[٣] فهو سبحانه رب النِّعَم الذي يستحق التمجيد والتفرد بهذا المدح.

٤٩ ـ ومن ذلك قوله[٤]:

أيا سيف ربك لا خلقه ويا ذا المكارم لا ذا الشطب

كيف يزعم المتنبي أن سيف الدولة الحمداني هو سيف الله؟!.

وهل كان سيف الدولة يقاتل الأعداء دفاعاً عن دين الله عز

---

(١) ديوانه (٢/ ١٥٦).
(٢) ديوانه (٢/ ١٩٨).
(٣) سورة النحل، الآية: ٥٣.
(٤) ديوانه (٢/ ١٩٨).

وجل، أم كان دفاعاً عن أرضه ودياره؟! والحق أنه لا يُطْلَق هذا اللقب (سيف الله) إلا على من أطلقه رسول الله ﷺ عليه، كخالد بن الوليد ـ رضي الله عنه ـ[1] أما غيرهم فلا ندري أكانوا سيوفاً لله أم سيوفاً لمصالحهم ودولهم؟!

٥٠ ـ ومن ذلك قوله[2]:

أغاية الدين أن تحفوا شواربكم   ياأمةً ضحكت من جهلها الأممُ

ونحن نعلم ـ كالمتنبي ـ أن الدين ليس غايته إحفاء الشوارب، إنما هي سُنة وردت عن رسول الله ﷺ بقوله: «أحفوا الشوارب»[3] فمن عمل بها فقد فاز بالأجر والمغنم. ومن خالفها فقد خالف سُنة النبي ﷺ، ومع ذلك لا يجوز لنا ولا لأبي الطيب أن يسخر من هذه السُنة النبوية بهذا القول الذي يوحي باحتقارها.

٥١ ـ ومن ذلك قوله[4]:

فتمليكِ دلير وتعظيم قدره   شهيدٌ بوحدانية الله والعدل

---

(١) كما في قوله ﷺ عن غزوة مؤتة: «حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله...» أخرجه أحمد (٣/ ١١٣) والنسائي (٤/ ٢٦).
(٢) ديوانه (٢/ ٢٨٥).
(٣) أخرجه البخاري ومسلم.
(٤) ديوانه (٢/ ٢٨٤).

وهذا ـ أيضاً ـ من الافتراء على الله بأنه عادلٌ إذا ملَّك ممدوح المتنبي (دلير) وعَظَّم قدره!

٥٢ ـ ومن ذلك قوله[١]:

جاء نيروزنا وأنت مراده ... وورت بالذي أراد زناده

٥٣ ـ ومثله قوله[٢]:

عربي لسانه فلسفي ... رأيه فارسيّةٌ أعياده

وهذا من الفرح بأعياد الفرس المشركين الذين يبتهجون بالنيروز[٣]، ويشاركهم في ذلك مدعو الإسلام «الرافضة» من أبناء الفرس، الذين يحنون إلى تراث آبائهم.

---

(١) ديوانه (٢/ ٢٩١).

(٢) ديوانه (٢/ ٢٩٢).

(٣) عيد النيروز عيد فارسيٌ المنشأ أحدثه ملكهم جمشيد وهو عبارة عن ستة أيام تُقضى حوائج الأيام في الخمسة الأيام الأولى وأما اليوم السادس فيجعله الأكاسرة لخواصهم وأنسهم ويسمونه «النيروز الكبير» وهذا العيد يُعد عيد رأس السنة الفارسية الشمسية وهو يوافق اليوم الحادي والعشرين من شهر مارس من السنة الميلادية. انظر: مجلة الأزهر عدد١٠ ص١٤٨٥ وشرح ثلاثيات المسند للسفاريني (١/ ٥٧٨)، وحاشية الدكتور عبدالله التركي والحلو على «المغني» لابن قدامة (٤/ ٤٢٨).

ومعلومٌ أن الفرح بأعياد الكفار وتهنئتهم بها محرمٌ شرعاً، قال الشيخ ابن عثيمين ـ حفظه الله ـ:

«مخالطة غير المسلمين في أعيادهم محرَّمة؛ لما في ذلك من الاعانة على الإثم والعدوان وقد قال الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾[1]. ولأن هذه الأعياد إن كانت لمناسبات دينية فإن مشاركتهم فيها تقتضي إقرارهم على هذه الديانة، والرضا بما هم عليه من الكفر، وإذا كانت الأعياد لمناسبات غير دينية فإنه لو كانت هذه الأعياد في المسلمين ماأقيمت فكيف وهي في الكفار؟ لذلك قال أهل العلم إنه لا يجوز للمسلمين أن يشاركوا غير المسلمين في أعيادهم، لأن ذلك اقرار ورضىً بما هم عليه من الدين الباطل، ثم إنه معاونة على الإثم والعدوان»[2].

٥٤ ـ من ذلك قوله[3]:

لنا مذهب العُبَّاد في ترك غيره   وإتيانه نبغي الرغائب بالزهد

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٢.

(٢) مجموع فتاوى الشيخ ابن عثيمين (١/ ٦١ ـ ٦٢) دار الوطن للنشر، الرياض.

(٣) ديوانه (٢/ ٣٠٠).

رجونا الذي يرجون في كل جنة بأرجان حتى مايئسنا من الخلد

وفي هذين البيتين أفصح المتنبي بكل وضوح عن هدفه من مدح الممدوح، إذ هو يبحث عن (الرغائب) لا غير، وهو يُشبِّه فعله هذا بفعل العُبَّاد الذين يخلصون العبادة لله عز وجل طالبين جنته، هاربين من ناره، فالمتنبي قد حقق (الإخلاص) في قصد الممدوح وحده دون غيره، مبتغياً (رغائبه)!

٥٥ـ ومن ذلك قوله[١]:

فإن يكن المهديُ من بان هديه فهذا وإلا فالهدى ذا فما المهدي؟

يعللنا هذا الزمان بذا الوعد ويخدع عما في يديه من النقد

وهذا القول فيه سخرية بعقيدة ثابتة عند أهل السُنة والجماعة، وهي عقيدة خروج المهدي، قال ﷺ: «**يكون في أمتي المهدي**»[٢].

أما المتنبي فمهديه غير مهدي المسلمين، وإنما هو

---

(١) ديوانه (٢/ ٣٠١).

(٢) أخرجه ابن ماجهْ، وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجهْ (٣٢٩٩) وانظر: رسالة «الرد على من كذب بالأحاديث الصحيحة الواردة في المهدي» ورسالة «عقيدة أهل السُنة والأثر في المهدي المنتظر» كلاهما للشيخ عبدالمحسن العباد ـ حفظه الله ـ وانظر: «السلسلة الصحيحة» للألباني (٢٣٧١).

ممدوحه الذي قد بان هديه، كما يزعم شاعر المديح!

٥٦ـ ومن ذلك قوله[١]:

الناس كالعابدين آلهةً وعبده كالموحد اللاها

وهذا من الغلو في المدح الذي برع فيه المتنبي، ولو كان على حساب دينه وعقيدته، فهو هنا يشبه حاله مع ممدوحه كحال المخلصين مع الله عز وجل.

٥٧ ـ ومن ذلك قوله[٢]:

ملاعب جنةٍ لو سار فيها سليمان لسار بترجمان

وهذا تبذلٌ لاسم نبي الله سليمان ـ عليه السلام ـ وكذب عليه، حيث ادعى أنه سيحتاج إلى ترجمان عندما يسير في هذا الشِّعْب، والله قد أخبرنا بأنه قد علَّمه منطق الحيوانات. قال سبحانه عنه ـ عليه السلام ـ: ﴿وَقَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾[٣].

٥٨ ـ ومن ذلك قوله[٤]:

---

(١) ديوانه (٢/ ٣٠٧).
(٢) ديوانه (٢/ ٣٠٨).
(٣) سورة النمل، الآية: ١٦.
(٤) ديوانه (٢/ ٣٠٩).

أبوكم آدم سن المعاصي وعلَّمكم مفارقة الجنان

وهذا تهور من المتنبي، حيث زعم أن آدم ـ عليه السلام ـ قد سنَّ لنا المعاصي وارتضاها، وهو ـ عليه السلام ـ إنما أذنب ذنباً تاب منه، ثم قدَّر الله عليه مفارقة الجنة، ثم ابتلاه بهذه الدار النكدة ليعود بشوق عظيم إلى الجنة مرة ثانية.

٥٩ ـ ومن ذلك قوله[١]:

فإن الناس والدنيا طريق إلى من ما له في الناس ثان

وهذا كذب من الشاعر، فالذي ماله في الناس ثانٍ هو رسول الله ﷺ لا ممدوح المتنبي.

٦٠ ـ ومن ذلك قوله[٢]:

ولولا كونكم في الناس كانوا هُراءً كالكلام بلا معانِ

وهذا يلحق بما مضى من الغلو في المديح.

٦١ ـ ومنه ـ أيضاً ـ قوله[٣]:

ولم أقل مثلك أعني به سواك يا فرداً بلا مُشبه

هذا ما تيسر لي من ملاحظته على ديوان المتنبي من أخطاء

---

(١) ديوانه (٢/ ٣١٠).
(٢) ديوانه (٢/ ٣١٢).
(٣) ديوانه (٢/ ٣٢٧).

تجاوز فيها حدود الشرع، أحببت أن لا يتسامح فيها قراؤه ومحبوه، أو يغضوا الطرف عنها.

والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

المؤلف
الرياض - ص. ب ٥٢٢
الرمز ١١٣٢١



دين المتنبي
للأستاذ سعيد الأفغاني[1]

عاش في هذه الدنيا قبل ألف عام رجل قضى إحدى وخمسين سنة يعمل في حياته للمجد؛ ركب إليه المكاره واقتحم الغمرات؛ أراده مرة من طريق الدين فخاب، ثم راوغه من طريق الولاية فأخفق، ثم مضى قُدُماً يجالد دون سبيله هذه جيوشاً من أذى الأعداء ونكاية الحساد وكلَب الزمان وتخلف الجد.

تقاذفته الأقطار ضارباً في الأرضِ: من حلب، إلى دمشق، إلى فلسطين، إلى مصر، إلى العراق، إلى فارس؛ حتى إذا ملأ الدنيا وشغل الناس وقفل راجعاً من شيراز وشارف بغداد وحط في سوادها الغربي، أحاط به أعداؤه في دير العاقول ليغتالوه، فقاتلهم قتال المستبسل المستميت حتى سقط دفاعاً عن نفسه وشرفه، فصعدت روحه إلى بارئها يحاسبها على ما قدمت في عاجلتها من خير أو شر

وإذا كان موضوعنا البحث في دين الرجل فلابد أن ننبه قبل الشروع فيه إلى أنا سنخرج على ذلك السخف التقليدي التي

---

(١) مقالة نشرت في مجلة الرسالة العدد (١٦١، ص١٢٥٣ ـ ١٢٥٧) علقتُ على مافيها من ملاحظات، ولشفيق جبري مقالة بعنوان «أخلاق المتنبي» نشرها في مجلة مجمع اللغة العربية (مجلد١٠ ص٥٢٦ ـ ٥٣٦).

توارثناه في عصورنا الأخيرة جيلاً عن جيل، في تكفير الناس من أجل كلمة قالوها أو عمل قاموا به؛ تتعلق لذلك بأوهى الأسباب ونتكلف له كل التكلف لنخرج مسلماً عن دينه وإنْ كرهناه، أو نؤولَ له ما زل به لسانه إن أحببناه. تعقد لذلك المجالس في المساجد والمدارس وعند السلطان، وتؤلف الرسائل وتثار الفتن وتراق الدماء، حتى لقد سوّل الشيطان لبعض الحكام أن يتخذ من عَبدة الهوى هؤلاء مطايا يركبها إلى غاياته فيمن يكره من كل آمر بمعروف أو جبّاه بحق أو ثائر على ظلم، فما أسرع ما كانت تخرج الفتيا بالتكفير، وما أسرع الحاكم حينئذ إلى البطش والفتك.

ولولا الخروج عن الموضوع لأفضت في شرح هذه الناحية من تاريخنا وما أدت إليه من سوء العقبى، وما جرت على العلم والدين من ويلات وخراب، وخاصة أخريات عصور الجهل، يوم كان يضطلع بهذه المهازل شيخ الإسلام في السلطنة العثمانية. وحسب المرء أن يذكر على سبيل التمثيل آراء المحبين والمبغضين في أجلاء الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ؛ صدر تاريخنا، ثم أقوال هؤلاء وهؤلاء في الحلاَّج ومحيي الدين بن عربي(١) وتلك الطبقة. بل ما لي أعمد إلى التاريخ البعيد

---

(١) الحلاج وابن عربي من كبار ملاحدة أهل التصوف الفلسفي، ولا عبرة بمن دافع عنهما فليت الأفغاني نزه كتابه عن ذكرهما.

وفي فجر نهضتنا مثل صالحة من ذلك. فاذكروا إن شئتم الأئمة جمال الدين ومحمد عبده ورشيد رضا ومن لف لفّهم. ألم يرفعهم قوم إلى درجات المصلحين المجتهدين، ويهبط بهم آخرون إلى دركات الكفار وأعداء الدين؟!

وغريب منهم هذا الفضول والتطفل، والله تعالى لم يجعل إلينا أمر الناس، حتى نزج أنفسنا في هذه المزالق. ومتى ملك بشرٌ أمر بشر والله يقول: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ﴾ أما كان في خوَيصة أنفسهم ما يشغلهم عن الناس والتحكم في آخرتهم؟ وما كان أقربهم من إنصاف لو عرضوا القول أو الفعل على الحق فسموا الأشياء بأسمائها وحكموا عليها بالخطأ أو الصواب، ولم يحمّلوا النصوص ما لا تحمل ووكلوا أمر الناس إلى الله، إذن لوفروا على أنفسهم عنتاً طويلاً ووقتاً سيسألهم الله عن إنفاقه في هذه السفاسف والآثام، وجهوداً لم يرزقهم الله إياها ليفرقوا دينه شيعاً ويؤلبوا عباده بعضهم على بعض.

وأنا إذ أعرض لدين المتنبي فإنما أحكم على أقوال قالها وعلى هنات صدرت عنه، فأعرضها على الحق، وسواء على الباحث إذا اجتهد وأخلص، أكان المتنبي بعد ذلك مسلماً أم ملحداً، فما لنا إيمانه ولا علينا كفره، ولا يملك إنسان لإنسان

عذاباً ولا ثواباً.

أُمهِّد لبحثي بكلمة عن الحالة الدينية في النصف الأول من القرن الرابع الهجري، وهو الأمد الذي عاش فيه شاعرنا؛ وأنا حين أفيض فيه إنما أتكلم عن المتنبي نفسه لشدة العلاقة بين الرجل وعصره، ولأن كل شيء من أحوال ذلك العصر كان يهيء للدعوات السياسية والدينية. وسنرى أن تنبؤ أبي الطيب ليس بالأمر الأد في ذلك الزمن الذي يعجّ بالأحزاب والنحل وأهل الأهواء.

كان الدين أروج التجارات حينئذ في جميع الأقطار الإسلامية؛ فمن بنى ملكاً تذرع له بالدين، ومن أراد ثورة جعل شعارها الدين، ومن دعا إلى نحلة فإنما سلاحه هذا الوتر الحساس من النفوس؛ ودولة بني العباس إذ ذاك منكمشة في رقعة صغيرة في العراق، تعيش مع ذلك خاضعة لسلطان الأمراء المتغلبين من الفرس أو الديلم أو الترك، والانتساب إلى آل بيت الرسول ﷺ أمضى سلاح يصرفه الخوارج وأرباب الأطماع.

كان في حلب بنو حمدان وهم علوية، وانقرض الأغالبة في المغرب فدعي للفاطميين في رقادة من أرض القيروان سنة ٢٩٦ وهم ينتسبون إلى فاطمة[١]، وكل خارج على الدولة إنما كان يدعو الناس إلى الرضى من آل محمد، وكان في تعاليم الشيعة ما يحفز الطامحين إلى شق العصا: كلٌّ يدعي أنه الإمام المنتظر.

وأعظم النحل تسلطاً ونفوذاً يومئذ ثلاث: الباطنية والشيعة والحنابلة[٢]، وهؤلاء الأخيرون انحصر سلطانهم في بغداد فترة من الزمن فقط، بينما انبث دعاة الشيعة والباطنية في كثير من الأقطار. وكان أهول الجميع خطراً وأبعدهم أثراً القرامطة، وهم طائفة مؤولة باطنية حلولية، جعلوا للشرع ظاهراً وباطناً، وبنوا مذهبهم على تأويل الأحكام والآيات. ظهروا سنة ٢٧٨هـ وانتشروا بالشام وسواد الكوفة، ثم اشتد أمرهم حتى زحفوا على حمص، وخضعت لهم دمشق على جزية، ثم زحفوا إلى الكوفة وعظم خطرهم وتفاقم شرهم،

---

(١) انتسابهم إلى فاطمة ـ رضي الله عنها ـ كذبٌ كشفه علماء أهل السنة، فالأولى أن يقال عنهم «الدولة العبيدية» نسبة إلى جدهم عبيدالله.

(٢) الحنابلة ليست نِحلة، إنما هم من أهل السنة والجماعة، يتبعون في الفقه إمامهم أحمد بن حنبل، كما أن غيرهم من أهل السنة يتبعون أبا حنيفة أو مالكاً أو الشافعي. وإنما تميزوا في العقيدة باتباعهم السلف الصالح، فالأولى أن يُقال هنا: «السلفيون» لا «الحنابلة».

وعجز جند الخلافة عن إخضاعهم «وما زال أمرهم إلى قوة حتى استولوا على أكثر بلاد الفرات، وأسسوا دولة بالبحرين، ودحروا جيوش الخليفة المقتدر، وثارت منهم طائفة في نواحي الحجاز، فانقطع الحج سنين خوفاً منهم، ولما أرسل إليهم المقتدر جيشاً بقيادة منصور الديلمي دحروه وقتلوا الحُجَاج يوم التروية في المسجد الحرام قتلاً ذريعاً وطرحوا القتلى في بئر زمزم، واقتلع زعيمهم الحجر الأسود من مكانه في الكعبة، وأخذه معه إلى هَجَر حيث بقي اثنين وعشرين عاماً حتى رُدَّ إلى مكانه أيام المطيع العباسي سنة ٣٩٣».

ذكر المعري في رسالة الغفران: «أن للقرامطة بالأحساء بيتاً يزعمون أن إمامهم يخرج منه ويقيمون على باب ذلك البيت فرساً بسرج ولجام، ويقولون للهمج والطغام: (هذه الفرس لركاب المهدي يركبه متى ظهر) وإنما غرضهم بذلك خدع وتعليل، وتوصل إلى المملكة وتضليل. ومن أعجب ما سمعت أن بعض رؤساء القرامطة في الدهر القديم لما حضرته المنية، جمع أصحابه وجعل يقول لهم لما أحس بالموت: (إني قد عزمت على النقلة وقد كنت بعثت موسى وعيسى ومحمداً، ولابد لي أن أبعث غير هؤلاء) فعليه اللعنة، لقد كفر أعظم الكفر في الساعة التي يؤمن فيها الكافر، ويؤوب إلى آخرته المسافر». اهـ.

نجد أن القرامطة أخذوا بالحلول والتناسخ المتسربين إلى المسلمين من الهند وفارس، وشاركوا بعض فرق الشيعة في فكرة الإمام المنتظر، وأصبح من ديدن كل داعية إلى بدعة أو خروج على سلطان، أن ينتسب إلى علي رضي الله عنه، أو أن يدعو إلى الرضى من آل محمد إن تعذرت عليه النسبة مباشرة.

وكثر هؤلاء الدعاة والخارجون، وفشت فاشيتهم حتى امتلأت حوادث تلك الأيام بذكرهم. وكان سقوط هيبة الخلافة وانحلال العصبية العربية من أهم العوامل في كثرة تلك الطوائف والانقسامات. وأصبحت الدنيا في كل مكان لمن غلب، وجهر المتغلبون وجنودهم بضروب من المناكر أنفدت صبر البقية الصالحة، فثار في بغداد جماعة من الحنابلة، واضطرمت قلوبهم بالغيرة على الدين من أن تنتهك محارمه، فأجمعوا أمرهم وانتظموا معسكرات تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر بالقوة والسلاح؛ واستفحل شأنهم وقويت شوكتهم، حتى صاروا يكبسون بيوت القواد والعامة فحيثما «وجدوا مسكراً أراقوه، أو مغنية ضربوها وكسروا آلة الغناء..» ولم يطل بهم الزمان حتى أذعنوا لمؤثرات العصر، فتسرب إلى جماعات منهم

أقوال هي إلى الحلول والتشبيه[١]، واندس في غمارهم ـ على ما يظهر ـ أناس ليسوا منهم، فعظمت أذيتهم على الناس، فتقدم إليهم الخليفة بالإنذار فما أفاد، فاضطر إلى قمعهم بالقوة وإراحة الناس منهم[٢].

هذا إلى أناس كثيرين جعلوا الدين وسيلة إلى الدنيا يتاجرون به متاجرة، فيوماً تراهم معتزلة ويوماً شيعة؛ وحيناً باطنية وتارة حلولية يقولون بالتناسخ، يميلون مع الريح حيث مالت، ويعرضون في كل سوق ما يروج فيها، لا يرجعون إلى عقيدة، ولا يصدرون عن إيمان، بل هم أبداً متقلبون ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾.

تلك هي حال الدين في عصر أبي الطيب وفي البلاد التي

---

(١) عقيدة الحنابلة في صفات الله هي عقيدة السلف الصالح متأثرين في ذلك بإمامهم أحمد بن حنبل ـ رحمه الله ـ وهو الإيمان بكل ما ورد من صفات الله في الكتاب والسنة دون تأويل لها أو تشبيه لها بصفات الخلق. وقد كان معطلة الصفات من المعتزلة والأشاعرة يُسمون كلَّ مثبت للصفات «مشبهاً»، ولهذا فقد اشتهر عن البعض ـ كالأفغاني ـ أن الحنابلة أو بعضهم مشبهة، فتنبه لهذا، ولا تنخدع بافتراءات منكري ومؤولي الصفات.

(٢) الأولى أن يعينهم على إنكار المنكر لا أن يقمعهم «ويريح الناس منهم» كما يزعم الأفغاني!

حل فيها[١]. فما ظنكم بفتى دون العشرين من عمره، يتوقد ذكاء، ويتفجر فصاحة، طماح مغامر، يعشق السيادة، وينشد المجد بكل قوته، التفت حوله فما رأى إلا جماهير بلا عقل، تتبع كل ناعق، عليهم رؤساء جهال، لا علم لهم ولا فضل ولا أدب، ما فيهم على كثرتهم من يقاربه في ذكائه ومواهبه وعظم نفسه، ثم أبصر سوق الدعوات رائجة كل الرواج، وكان في طبيعة كثير منهم ما يدعو الطامح إلى محاولة السيادة عن طريق الدين.

شاء هذا الفتى أن يقيم نسبة بين دعوتهم ودعوته تتسق هي والفرق بينهم وبينه، فإذا كان فيهم من ادعى أنه الإمام المنتظر، أو المهدي، أو الرضى، فإن النسبة تقضي أن يدعي النبوة دفعة واحدة، وقد فعل.

ولا مندوحة لي هنا عن القول بأن تنبؤه في الأعراب أمر وقع حقيقة ولا سبيل إلى الشك فيه، تضافرت على ذلك كل المصادر الموثوقة، حتى التي كانت تميل إليه كل الميل، فإنها

---

(١) هذا تشاؤم من الأفغاني، ودعوى باطلة، لأنه كما أخبر ﷺ لا تزال طائفة من أمته على الحق ظاهرين، لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم.

لم تنف الأمر وإنما التمست له المعاذير، وما كان أغناها عن ذلك، فإن في السن التي وقعت فيها هذه الزلة العذر كل العذر[1]؛ وليس من الإنصاف أن نلمز حياة خمسين سنة من أجل هناة كانت في سن الفتوة. فلأشرع في ذكر هذا التنبؤ بإيجاز، ثم لأفض في علاقة الرجل بالدين مدى حياته. وسأعتمد في قص الحادث على أبي العلاء خاصة، لفضله[2] ولتحريه وقرب زمانه. وسأعفي نفسي من أشياء كثيرة وردت في (الصبح المنبي) لا يقبلها عقل ولا تؤيدها قرائن.

وقع المتنبي إلى بادية السماوة وأظهر دعوته، فتبعه قوم من الأعراب من بني كلب، خلبهم بذلاقة لسانه، وحسن بيانه. وتلا عليهم كلاماً زعم أنه أنزل عليه. نقله الأنباري في طبقاته عن أبي علي بن حامد قال: «وكان قد تلا على البوادي كلاماً زعم أنه قرآن أنزل عليه. فكانوا يحكون له سوراً كثيرة نسخت منها سورة ثم ضاعت وبقي أولها في حفظي وهو: والنجم السيار، والفلك الدوار، والليل والنهار، إن الكافر لفي أخطار.

---

(١) لا عذر للمتنبي في ادعائه النبوة لأنه حينها كان عاقلاً بالغاً، وفعله هذا [illegible] لا يجهل حُرمته مسلم.

(٢) لم يكن المعري فاضلاً! بل كان متذبذباً متحيراً في دينه، وله من الأقوال (الكفرية) الشيء الكثير، مما ليس هذا موضع ذكره.

امض على سنتك، واقف أثر من قبلك من المرسلين، فإن الله قامع بك زيغ من ألحد في دينه وضل عن سبيله».

وقد حفظ لنا التاريخ مشهداً من مشاهد هذه الدعوة في اللاذقية، ولا ريب أنه كان بعد أن توثق أمر المتنبي بعض التوثق في البادية. قال أبو عبدالله معاذ بن اسماعيل اللاذقي:

«قدم أبو الطيب المتنبي اللاذقية في سنة ٣٢٠هـ وكان عمره يومئذ سبع عشرة سنة وهو لا عذار له، وله وفرة إلى شحمتي أذنيه، فأكرمته وعظمته لما رأيت من فصاحته وحسن سمته؛ فلما تمكن الأنس بيني وبينه وخلوت معه في المنزل اغتناماً لمشاهدته واقتباساً من أدبه قلت له: «والله إنك لشاب خطير، تصلح لمنادمة ملك كبير..» فقال: «ويحك! أتدري ما تقول؟ أنا نبي مرسل..» فظننت أنه يهزل، ثم تذكرت أني لم أسمع منه كلمة هزل قط منذ عرفته فقلت له: «ما تقول؟» فقال: «أنا نبي مرسل..».

فقلت له: «مرسل إلى من؟». قال: «إلى هذه الأمة الضالة». قلت: «تفعل ماذا؟». قال: «أملأ الدنيا عدلاً كما ملئت جوْراً».

قلت: «بماذا؟».

قال: «بإدرار الأرزاق والثواب العاجل لمن أطاع وأتى، وضرب الأعناق لمن عصى وأبى».

فقلت له: «إن هذا أمر عظيم أخاف عليك منه أن يظهر» وعذلته على ذلك، فقال بديهاً:

أبا عبدالإله معاذ إني   خفي عنك في الهيجا مقامي
ذكرت جسيم مطّلبي وأنّا   نخاطر فيه بالمهج الجسام
أمثلي تأخذ النكبات منه   ويجزع من ملاقاة الحمام
ولو برز الزمان إليّ شخصاً   لخضب شعر مفرقه حسامي
وما بلغت مشيئتها الليالي   ولا سارت وفي يدها زمامي
إذا امتلأت عيون الخيل مني   فويل في التيقظ والمنام

بهذه القوة والاطمئنان يتحمس المتنبي لنصرة دعوته ويحاول تمكينها من القلوب، فلنصغ إلى أبي العلاء المعري في رسالة الغفران يحدث عن معجزات نسبت إلى أبي الطيب، قال:

«وحدثت أن أبا الطيب لما حصل في بني عدي وحاول أن يخرج فيهم قالوا له وقد تبينوا دعواه: ههنا ناقة صعبة فإن قدرت على ركوبها أقررنا أنك نبي مرسَل. وأنه مضى إلى تلك الناقة وهي رائحة في الإبل، فتحيّل حتى وثب على ظهرها فنفرت ساعة، وتنكرت برهة، ثم سكن نفارها ومشت مشي المسمحة،

وأنه ورد بها الحلة وهو راكب عليها، فعجبوا له كل العجب، وصار ذلك من دلائله عندهم.

وحدثت أيضاً أنه كان في ديوان اللاذقية، وأن بعض الكتاب انقلبت على يده سكين الأقلام فجرحته جرحاً مفرطاً، وأن أبا الطيب تفل عليها من ريقه وشد عليها غير منتظر لوقته، وقال للمجروح: لا تحلها في يومك، وعد له أياماً وليالي، وأن ذلك الكاتب قبل منه، فبرئ الجرح، فصاروا يعتقدون في أبي الطيب أعظم اعتقاد ويقولون: هو يحيي الأموات.

وحدث رجل كان أبو الطيب قد استخفى عنده في اللاذقية أو في غيرها من السواحل، أنه أراد الانتقال من موضع إلى موضع، فخرج بالليل ومعه ذلك الرجل، ولقيهما كلب ألح عليهما في النباح، ثم انصرف، فقال أبو الطيب لذلك الرجل وهو عائد: إنك ستجد ذلك الكلب قد مات، فلما عاد الرجل لقي الأمر على ما ذكر.

ولا يمتنع أن يكون أعد له شيئاً من المطاعم مسموماً وألقاه له وهو يخفي عن صاحبه ما فعل» اهـ.

هذا ما ذكر المعري من معجزاته، وقد ذكر غيره معجزات أخر نضرب عنها صفحاً، لبعدها عن العقل، ولأن راويها ليس

في التثبت بمكان أبي العلاء .

وفي ديوان أبي الطيب قصيدتان قالهما في صباه، تفيضان أملاً وطموحاً وكفاحاً، وأنا أجعل زمانهما فترة التنبؤ هذه، حين كانت نفسه تجيش بأبعد المطامع وتوقن بالفوز والنجاح .

لما وجد تلكؤ الناس عن إجابة دعوته في نخلة ـ إحدى قرى بني كلب ـ ومظاهرته بالعداء، عزم على المضي بأمره وتحمل الأذى، ورسم لنفسه هذه الخطة الواضحة في قصيدته :

ما مقامي بأرض نخلة إلا	كمقام المسيح بين اليهود
مفرشي صهوة الحصان ولكـ	ـن قميصي مسرودة من حديد
أين فضلي إذا قنعت من الدهـ	ـر بعيش معجل التنكيد
ضاق صدري وطال في طلب الرز	ق قيامي وقل عنه قعودي
أبداً أقطع البلاد ونجمي	في نحوس وهمتي في سعود
عش عزيزاً أو مت وأنت كريم	بين طعن القنا وخفق البنود
فاطلب العز في لظى ودع الذ	ل ولو كان في جنان الخلود
إن أكن معجباً فعجب عجيب	لم يجد فوق نفسه من مزيد
أنا ترب الندى ورب القوافي	وسمام العدا وغيظ الحسود
أنا في أمة تداركها اللـ	ـه غريب كصالح في ثمود

ولما رزقت دعوته بوارق من الإقبال في بني كلب سكر

بنشوتها وطفقت نفسه تحدثه بقرب تحقيق الأمنية، ثم استمر خياله يبني له هذا المجد حتى أنس من نفسه قوة وتحفزاً، فراح يتحدث بإنفاذ ما رسم من خطة، ولو وقفت دونه ملوك الأرض، إلى أن تتم دعوته ويسود الناس.

إن شئت فانظر في هذه الأبيات أهي لهجة شاعر يفتخر، أم إيمان طماح واثق من نفسه كل الثقة؟

سيصحب النصل مني مثل مضربه وينجلي خبري عن صمة الصمم
لقد تصبرت حتى لات مصطبر فالآن أقحم حتى لات مقتحم
لأتركن وجوه الخيل ساهمة والحرب أقوم من ساق على قدم

وما قولك فيمن سيغني الأرض بالدماء عن الأمطار:

تنسي البلاد بروق الجو بارقتي وتكتفي بالدم الجاري عن الديم

ويخاطب نفسه هذا الخطاب الناري، مشجعاً إياها، مهوناً عليها أمر الناس فيقول:

ردي حياض الردى يا نفس واتركي حياض خوف الردى للشاء والنعم
إن لم أذرك على الأرماح سائلة فلا دعيت ابن أم المجد والكرم

ثم انظر هذا الإنذار الشامل والوعيد الرهيب لأهل الأرض وملوك العجم والعرب:

ميعاد كل رقيق الشفرتين غداً ومن عصى من ملوك العرب والعجم

فإن أجابوا فما قصدي بهالهم وإن تولوا فما أرضى لها بهم

هذه نفثة نفس جائشة تسلحت باليقين ورأت الخيال يلوح لها بقوة الحقيقة الواقعة، مؤمن بالفوز، واثقة من كفاءتها واضطلاعها بالأمور الجسام، وما أظن أبا الطيب حين قال هذه القصيدة كاذباً في نفسه، لا بل كان يحدث عنها أصدق الحديث، وإن كان مخدوعاً ثائراً يريه شبابه الفائر ومواهبه المتقدة السراب ماء فذهب يصف ما تريه نفسه. وإلا فكيف تكون القصيدة أقوى ظهوراً منها فيما تلوت من شعره.

تبعت أبا الطيب شراذم من عامة وأعراب، ثم نمى خبره إلى لؤلؤ أمير حمص من قبل الإخشيدية، وأنه يخشى أن يستفحل أمره «فخرج إليه لؤلؤ، فقاتله وأسره وشرد من كان معه من بني كلب وغيرهم من قبائل العرب. وحبسه في السجن دهراً طويلاً حتى كاد يتلف، فكانت حاله إلى الضراعة والاستكانة.

وكانت هذه الضربة كافية في إعادة رشده إليه وفي يقظته من حلمه اللذيذ الذي نعم به زمناً يسيراً فاستقامت تلك النفس التي كانت تهذي في حلمها وتقول:

إذا امتلأت عيون الخيل مني فويل في التيقظ والمنام

وتقول :

ميعاد كل رقيق الشفرتين غداً ومن عصى من ملوك العرب والعجم

وهبطت من عليائها إلى أسفل الدركات فقالت :

أمالك رقي ومن شأنه هبات اللجين وعتق العبيد
دعوتك عند انقطاع الرجا ء والموت مني كحبل الوريد

ثم سئل لؤلؤ في أمره فاستتابه وكتب وثيقة وأشهد عليه فيها ببطلان ما ادعاه ورجوعه إلى الإسلام وأطلقه .

وبهذا انطوت صحيفة من تاريخ أبي الطيب في صباه، على نزوة خلدها التاريخ على قلة ما يسجل للصبيان من نزوات .

لم يفد أبو الطيب من مغامرته هذه إلا لقب (المتنبي) الذي لصق به على كره منه، فكان يستحي بعد توبته كل الاستحياء . ذكر عنه المعري أنه سئل عن حقيقة هذا اللقب فقال : «هو من النَّبْوه أي المرتفع من الأرض» ولما كان في بغداد قال له أحد الأكابر : «خبرني من أثق به أنك قلت إنك نبي؟» فقال أبو الطيب : «الذي قلته : أنا أحمد النبي»!

قال أبو علي بن حامد : «كان المتنبي في مجلس سيف الدولة : إذا ذكر له قرآنه أنكره وجحده . وقال له ابن خالويه يوماً في مجلس سيف الدولة : «لولا أن أخي جاهل لما رضي أن

يدعى بالمتنبي لأن معنى المتنبي كاذب، ومن رضي أن يدعى بالكذب فهو جاهل. فقال أبو الطيب: لست أرضى أن أدعى بذلك وإنما يدعوني به من يريد الغض مني، ولست أقدر على المنع».

ونقل صاحب طبقات الأدباء (ص٣٧١) عن التنوخي قال: قال لي أبي: «أما أنا فسألته بالأهواز عن معنى المتنبي لأني أردت أن أسمع منه هل تنبأ أو لا؟ فجاوبني جواب مغالط وقال: «إن هذا شيء كان في الحداثة فاستحييت أن أستقصي عليه فأمسكت».

وزعم جماعة أن اللقب لصق به لتشبهه بالمسيح مرة، وبصالح مرة في أبياته التي مرت.

وكيفما كان؛ فإن الذين عاشوا في زمن المتنبي وبعده مجمعون على ادِّعائه النبوة، وكان هو يجهد أن ينفي التهمة في حياته خجلاً وحياء. وليس بين الأمرين تناقض ولا داع إلى حيرة. وقد كان هذا اللقب على أبي الطيب من أشد ما كابد في حياته: فقد منعه كافور الولاية بسببه، ولما عوتب قال: «يا قوم، من ادعى النبوة بعد محمد ﷺ ألا يدعي الملك مع كافور؟ فحسبكم» وكلما أراد عدو أو شاعر إيلام المتنبي هجاه ونبزه بهذا اللقب.

٢ـ دين المتنبي
للأستاذ سعيد الأفغاني[1]

أنتقل الآن إلى الكلام عن اعتقاد أبي الطيب، وهو الموضوع الذي زلت فيه أقدام كثيرين، إما لميل إلى الرجل أو عليه، وإما لاكتفائهم من البحث بأدنى نظرة، وتعلقهم بظاهر من القول دون نفاذ إلى حقيقته ولا تطلع إلى ما حف به من قرائن. والحيطة في هذا ضرورية لمن يريد استنباط أمور من الشعر العربي، وخاصة في عصر كعصر أبي الطيب فشا فيه المدح والغلو والتلاعب بالألفاظ، وأصبح كل مادح على مذهب ممدوحه في الأغلب، فإن كان شيعياً أشاد الشاعر بسراة الشيعة ورفع من مقالتهم، وإن كان يقول بالتناسخ مال الشاعر إليه، وإن كان معتزلياً أو سنياً فالشاعر معتزلي أو سني.. وهكذا دواليك.

فشت هذه الظاهرة من النفاق في الناس وكانت أشد ما تكون في الشعراء، حتى لقد شهد المعري عليهم وعلى عصرهم

---

(١) نشرت في مجلة الرسالة، عدد ١٦٢.

بذلك؛ وحسب التاريخ شهادة شيخ المعرة، فقد أيدها بالدليل، وأرسل فيها قولاً حكيماً يعرف رشده وصوابه كل من أمعن الفكرة، ولم يكتف بالنظرة. قال بعد أن ذكر تنبؤ أبي الطيب والأبيات تدل على تألهه: «وإذا رجع إلى الحقائق فنطق اللسان لا ينبيء عن اعتقاد الإنسان، لأن العالم مجبول على الكذب والنفاق، ويحتمل أن يظهر الرجل بالقول تديناً وإنما يريد أن يصل به إلى ثناء أو غرض؛ ولعله قد ذهب جماعة هم في الظاهر متعبدون وفيما بطن ملحدون. وما يلحقني الشك في أن دعبَل بن علي لم يكن له دين، وكان يتظاهر بالتشيع، وإنما غرضه التكسب؛ ولا أرتاب في أن دعبلاً كان على رأي الحكمي وطبقته، والزندقة فيهم فاشية ومن ديارهم ناشئة. . .».

وقال في موضع آخر: «وفي الناس من يتظاهر بالمذهب ولا يعتقده، يتوصل به إلى الدنيا الفانية، وكان لهم (يعني القائلين بالتناسخ) في المغرب رجل يعرف بابن هانئ وكان من شعرائهم المجيدين فكان يغلو في مدح المعز غلواً عظيماً، حتى قال فيه وقد نزل بموضع يقال له رقَّادة:

حل برقَّادة المسيح حل بها آدم ونوح
حل بها الله ذو المعالي وكل شيء سواه ريح»

فمن الضلال البين إذن أن نلزم أبا الطيب عقيدة ذكرت في شعره عرضاً، إلا إذا صحبته قرائن تقويها وتدل على اعتقاده إياها[1]. وليس من الصواب في شيء اعتبار الشعر ـ وحاله ما بينا ـ مصدراً من مصادر التاريخ. وما أجهل المؤرخ إذا حكم على أخلاق سيف الدولة أو كافور بشهادة شعر المتنبي فيهما.

بهذا الحذر أخوض الكلام في اعتقاد المتنبي مع علمي بأنه لم ينظم شيئاً يبين فكرته في الدين خاصة، وإنما هي أبيات وقعت في جملة شعره، بوسع المؤرخ أن يستأنس بها بعد أن يدرس سيرته.

جاء في خزانة الأدب للبغدادي كلام عن اعتقاد أبي الطيب منقول عن الأصفهاني وهذا نصه:

«وهو (أي أبو الطيب) في الجملة خبيث الاعتقاد؛ وكان في صغره وقع إلى واحد يكنى أبا الفضل بالكوفة من المتفلسفة فهوّسه وأضله كما ضل. وأما ما يدل عليه شعره فمتلون، وقوله:

هون على بصر ما شق منظره فإنما يقظات العين كالحلم

---

(١) نعم لا نحكم على الرجل أو غيره بالظنون، ولكننا مع هذا ننكر ما في شعره من أخطاء وانحرافات واضحة لا يقرها الإسلام. كما سبق.

مذهب السوفسطائية. وقوله:

تمتع من سهاد أو رقاد ولا تأمل كرى تحت الرجام
فإن لثالث الحالين معنى سوى معنى انتباهك والمنام

مذهب التناسخ. وقوله:

نحن بنو الدنيا فما بالنا نعاف ما لابد من شربه
فهذه الأرواح من وجوه وهذه الأجسام من تربه

مذهب القضائية. وقوله:

فإن يكن المهدي من بان هديه فهذا، وإلا فالهدى ذا، فما المهدي؟!

مذهب الشيعة (كذا). وقوله:

تخالف الناس حتى لا اتفاق لهم إلا على شجب والخلف في الشجب
فقيل: تخلد نفس المرء باقية وقيل: تشرك جسم المرء في العطب

مذهب من يقول بالنفس الناطقة. ويتشعب بعضه إلى قول الحشيشية، والإنسان إذا خلع ربقة الإسلام من عنقه وأسلمه الله عز وجل إلى حوله وقوته وجد في الضلالات مجالاً واسعاً، وفي البدع والجهالات مناديح رفسحاً» اهـ.

فأبو الطيب في رأي هذا الفاضل: سوفسطائي، تناسخي قضائي شيعي حشيشي... مجموعة مذاهب لو فُرقت على مملكة عريضة لخربتها في يومين؛ فما الحال إذا اضطلع بها كلها

قلب رجل واحد؟

على أن الشواهد التي استند إليها في أحكامه هذه لا تحمل ما حمّلها: فالشاهد الثاني (تمتع من سهاد... البيت) ليس فيه ما يصرح بالتناسخ. وقوله: «فإن يكن المهدي...» يخرجه من الشيعية إخراجاً، لأنه شك في المهدي أول البيت، ثم جعل ممدوحه هو المهدي إن كان هناك مهدي، ثم ختم البيت بهذا الاستفهام التهكمي: ما المهدي!!؟

وإن دل الشاهد الأخير (تخالف الناس.. البيتين) على شيء فعلى تردد أبي الطيب بين القولين وعلى شكه وحيرته بدليل البيت الذي بعدهما:

ومن تفكر في الدنيا ومهجته أقامه الفكر بين العجز والتعب

والذي استفدناه من كل ذلك أن المتنبي وقع في حداثته إلى رجل من المتفلسفة فهوّسه وأضله، والظاهر أن أثر هذا الأستاذ كان في أبي الطيب بالغاً، فقد بقي ضعف العقيدة وعدم الاعتداد بآداب الدين ملازماً أبا الطيب حتى مات.

ومهما يكن، فقد ألم المتنبي بكثير من النحل الشائعة في عصره دون اعتقاده بواحدة ما. وذكر بعضها في شعره منزّلة خير تنزيل: مدح طاهراً العلوي مرة فقال:

إذا علوي لم يكن مثل طاهر   فما هو إلا حجة للنواصب

والنواصب الخوارج الذين نصبوا العداء لعلي .

وذكر المانوية أصحاب الاثنين الزاعمين أن الخير كله من النور وأن الشر كله من الظلام فقال :

وكم لظلام الليل عندك من يد   تخبّر أن المانوية تكذب

وعرض لذكر المجوس ومذهبهم في نكاح الأخوات حين أراد الثناء على حسن امرأة ود أخوها لو كانت تحل له لفرط جمالها فقال :

يا أخت معتنق الفوارس في الوغى   لأخوك ثَمّ أرق منك وأرحم

يرنو إليك مع العفاف وعنده   أن المجوس تصيب فيما تحكم

وقع في شعره ذكر كلمة يصح أن يتعلق بها من يريد جر أبي الطيب إلى طائفة ما ، وهي كلمة (الوصيّ) في قوله :

هو ابن رسول الله وابن وصيه   وشبههما شبهت بعد التجارب

وقوله :

وتركت مدحي للوصي تعمداً   إذ كان نوراً مستطيلاً شاملاً

وقد فرغت من بيان أن مثل هذا لا يدل على شيء ، ولا ينهض دليلاً ولا بعض دليل ، لجريان عادة الشعراء بمجاراة الممدوح في عقيدته ورأيه .

وبعد، فإن لم يكن للحكم على دين المتنبي مجال في شعره، ففي تلك الشناعات القبيحة التي زجه فيها الغلو في المدح حتى قل أدبه مع الله ومع رسله وكتبه، حين زعم لممدوحيه علواً يرفعهم إلى ذلك المستوى. والمدح متى جاوز الواقع فهو محظور في كل الأديان، فكيف إن كان بالباطل وإلى التغالي. دع ما يريق من ماء وجه المادح وما يكسر من عزته ويضيع من كرامته. ومتى كان مسلماً من لا حياء له ولا عزة ولا كرامة؟

ووددت والله لو أن شعراءنا هجروا هذا الباب، باب المديح، مرة واحدة بمحاسنه ومقابحه، وشغلوا عنه بغيره من فنون القول الواسعة، فما هو بالفن المشرف ولا المأسوف عليه إن فقد. وقد حفظ الأدب العربي كثيراً من المبالغات الممقوتة والغلو الشنيع، ولكن ما في ديوان أبي الطيب وحده هو بكل ما في مكتبتنا قبحاً وشناعة وإساءة أدب:

مرة يحاول السجود لممدوحه فلا يكفه إلا الزجر:

طلبنا رضاه بترك الذي ... رضينا له فتركنا السجودا

ومرة يشرك هذا الممودح بالله فيقول:

ما يرتجى أحد لمكرمة ... إلا الإله وأنت يا بدر

ويقول:

ترى القمر الأرضي والملك الذي　　له الملك بعد الله والمجد والذكر

ويقول:

إذا بقيت سالماً أبا علي　　فالملك لله العزيز، ثم لي

ويقول:

أنا مبصر وأظن أني نائم　　من كان يحلم بالإله فأحلما

ويقول:

تتقاصر الأفهام عن إدراكه　　مثل الذي الأفلاك فيه والدنا

يعني الله سبحانه.

ويستخف تارة بالمصطلحات الدينية استخفافاً ظاهراً فيقول:

يترشفن من فمي رشفات　　هن فيه أحلى من التوحيد

وقد أرادوا تأويل هذا البيت فكان التكلف والتعسف ظاهرين في تأويلهم.

وقال:

وأعطيت الذي لم يعط خلق　　عليك صلاة ربك والسلام

وجعل ممدوحه أعظم معجزات النبوة في قوله:

وأبهر آيات التهامي أنه أبوك وأسمى ما لكم من مناقب

وهو لا يرى لممودحه شبيهاً أبداً فيقول:

لم يخلق الرحمن مثل محمد أبداً وظني أنه لا يخلق

ويقول:

إن كان مثلك كان أو هو كائن فبرئت حينئذ من الإسلام

وانظر هذا الغلو الممقوت في قوله:

لو كان علمك بالإله مقسماً في الناس ما بعث الإله رسولا
لو كان لفظك فيهمُ ما أنزل ال قرآن والتوراة والانجيلا

وفي قوله:

أو كان صادف رأس عازر سيفه في يوم معركة لأعيا عيسى
أو كان لج البحر مثل يمينه ما انشق حتى جاز فيه موسى
يا من نلوذ من الزمان بظله أبداً ونطرد باسمه إبليسا

وهذا الهذيان ما معناه؟

ياأيها الملك المصفى جوهراً من ذات ذي الملكوت أسمى من سما
نور تظاهر فيك لاهوتيهُ فتكاد تعلم علم ما لن يعلما

وهو حيناً كالمسيح (ما مقامي بأرض نخلة . . . البيت) وحيناً كصالح (أنا في أمة . . . البيت) ولا يخجل بعد هذا الادعاء أن يضرع إلى من سجنه بهذه العبودية:

أما لـك رقـى ومـن شـأنـه   هبـات اللجيـن وعتـق العبيـد

هو من حداثته مهوس مضلل لم يستنر قلبه بنور عقيدة، ولا شعر صدره ببرد يقين. فلم ينشأ تنشئة دينية في صباه، ثم طرح إلى هموم الحياة وأتعابها فاضطر إلى التكسب بالمدح من صغره، وشغل عن عبادة الله والتدين بعبادة الناس والمال لهذا السبب، لا «لأنه صاحب مطامع دنيوية وعقل موكل بالأعمال والوقائع لا بالعقائد والعادات»[١] فليس هناك تناف بين التوكيل بالأعمال والتدين، ولم يخل المتدينون يوماً عن مآرب ومطامع في هذه الحياة.

هذا وليس للمتنبي فلسفة إلهية حتى نقول: إنه استهان بالدين تفلسفاً؛ وليس لعقله ما لعقل أبي العلاء من مواهب تؤهل صاحبها للنظر والحكم في المقالات والمذاهب[٢]، بل هو في هذا الاستخفاف الذي تم عليه شعره لا يترفع كثيراً عما نرى عليه بعض العامة المستخفين.

كان إلى جانب المحن والثورات الداخلية التي مني بها

---

(١) قالها العقاد في كتابه: «مطالعات» (ص١٢١).

(٢) سبق القول عن تحير المعري وتشككه في المذاهب والأديان، ومنها الإسلام! فنعوذ بالله من عقل يقود إلى هذا.

المسلمون في القرن الرابع غارات أجنبية متواصلة تشن على ثغور المسلمين؛ وكان أمراء العرب في تأهب مستمر لرد هذه الغارات فيظفرون تارة وتارة يغلبون، وسيف الدولة أحد هؤلاء الأمراء الذين أصلوا الروم بنيرانهم وشغلوا برد غاراتهم.

ونزعة الحروب في الشرق ـ قديماً وحديثاً ـ دينية أبداً ما تغيرت يوماً من الأيام، إلا أن الروم كانوا في القرن الرابع الهجري صريحين، لم يهتدوا بعد إلى هذا الطلاء الكاذب الذي أسموه تمديناً بعد عشرة قرون.

وشاعرنا أبو الطيب شارك سيف الدولة في جهاده الديني فقاتل بجسمه وتعرض للخطر، وناضل بلسانه، وفي شعره من مواطن الغيرة على الدين وأهله من تسلط الروم ما يحمل المنصف على عدها في حسناته، كان يرى هذه الحروب كما كان يراها غيره من أهل زمانه وكما هي في الواقع ـ دينية لا قومية ـ، وهذا هو الفارق بينها وبين حروب سيف الدولة مع خصومه من الأمراء.

فكانت قصائد أبي الطيب التي يصف فيها هذه الحروب تطفح بالحمية الدينية والنزعة الإسلامية، فهو يثني على سيف الدولة الذي هزم الدمستق وأنقذ المسلمين من إكراه الروم لهم

على الردة فيقول:

فخرُّوا لخالقهم سجداً ولو لم تغث سجدوا للصُلُب

ولم تعجبه هدنتهم مع الروم فقرعهم ومدح سيف الدولة لتدينه فقال:

أرى المسلمين مع المشركـ ـين فإما لعجز وإما رهب
وأنت مع الله في جانب قليل الرقاد كثير التعب

ومن هنا تلقيبه سيف الدولة بسيف الرب وسيف الدين في أقواله:

أيا سيف ربك لا خلقه ويا ذا المكارم لا ذا الشطب
يا سيف دولة دين الله دم أبداً وعش برغم الأعادي عيشة رغدا
يا سيف دولة ذي الجلال ومن له خير الخلائف والأنام سميا
خضعت لمنصلك المناصل عنوة وأذل دينك سائر الأديان

ونعته بنفرته الشديدة من الردة وتعلقه بالإسلام فقال:

كأن سخاءك الإسلام تخشى إذا ما صلت عاقبة ارتداد

وهو رجاء الإسلام والمُوَقى من الرحمن ونصير التوحيد:

ولست مليكاً هازماً لنظيره ولكنك التوحيد للشرك هازم
هنيئاً لضرب الهام والمجد والعلا وراجيك والإسلام أنك سالم

ولمْ لا يقي الرحمن حديك ما وقى وتفليقــه هامَ العدا بك دائــم

أبو الطيب يذهب أبعد من هذا : لا يكتفي باستنكار سلطان الروم على قومه، بل يأنف لهم أن يحكمهم مثل كافور، وإن كان مسلماً مثلهم، ولا يرضيه سكوت الناس عليه؛ ويغضبه أن يعظموه، فيصرخ فيهم هذه الصرخة ويعرض بأم كافور :

نُوبيّة لم تدر أن بنيها الـ ـنوبي دون الله يعبد في مصر

ثم يرسلها ملعلعة تتنزى بالألم والحسرة والأسف على ما صار إليه الإسلام فيقول :

سادات كل أناس من نفوسهم وسادة المسلمين الأعبد القزم

رحم الله أبا الطيب! ما تراه كان قائلاً لو بُعث اليوم فشاهد ما نشاهد! إذن لرأى هؤلاء القزم شرفاء قياساً إلى غيرهم، بل أنبياء!

لصاحبنا إزاء ما تقدم من أبيات يأباها الدين والعقل، أبيات أخرى هي من صميم الدين وروحه، يتقاضاني الإنصاف ذكر شيء منها كما ذكرت تلك، فقد نص في بعضها على أنه لا يخضع لمخلوق أبداً :

تغرب لا مستعظماً غير نفسه ولا قابلاً إلا لخالقه حكماً

وقد جعله أبو العلاء بهذا البيت من المتألهين. ويعترف

بتصرف الله المطلق في الكون :

ألا إنما كانت وفاة محمد ... دليلاً على أن ليس لله غالب

وأن الله هو الملحوظ في كل فعل وحركة :

أنت حسام الملك والله ضارب ... وأنت لواء الدين والله عاقد

وهذا البيت ينظر إلى قول الله مخاطباً نبيه : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ .

وهو يجعل شكر الله واجباً في دوام النعمة حين قال في ممدوحه :

مقلداً فوق شكر الله ذا شطب ... لا تستدام بأمضى منهما النعم

وكما أبى قبول الحكم من غير خالقه أبى الشكوى إلى الناس، وهذا غاية ما يأخذ به الموحد في نفسه :

ولا تَشَكَّ إلى خلق فتشمته ... شكوى الجريح إلى الغربان والرخم

ولنذكر أن صاحب دمشق وكان يهودياً يعرف بابن ملك حمل المتنبي على مدحه فأبى أنفة، وكذلك فعل مع ابن كيغلغ وكان رومياً .

هذا ما رأيت في شعر أبي الطيب من تعلق بالدين سلباً أو إيجاباً، ذكرته في حقه بحرية وصراحة .

أما سيرته العملية فقد ذكروا له أخلاقاً يحمده عليها

الدين، وهي عفة المذهب والصدق[١]. وقد كان المتنبي ـ كما ذكروا ـ لم يؤثر عنه فسوق قط.

وقوله:

إني على شغفي بما في خمرها　　لأعف عما في سراويلاتها

.. إلخ

صحيح كل الصحة في الدلالة على عفته، فقد أيدته سيرته طول حياته.

وكذلك في التزامه جانب الصدق:

ومن هوى الصدق في نفسي وعادته　　رغبت عن شَعَر في الرأس مكذوب

ثم ذكروا له خلالاً ثلاثاً دلت على أن الرجل لم يأخذ نفسه بشيء من التكاليف الشرعية، أي لم يكن مسلماً بالعمل. قال أبو حمزة البصري: «بلوت من أبي الطيب ثلاث خلال محمودة: هي أنه ما كذب ولا زنى ولا لاط، وبلوت منه ثلاث خلال مذمومة، وهي أنه: ما صام ولا صلى ولا قرأ القرآن...».

فإذا أضفت إلى ذلك ما نعرف في سيرته من البخل والتعاظم وسلاطة اللسان، وأن له في القذف فحشاً ما عرف أقبح

---

(١) كيف هذا، وهو «المتنبي»؟!

منه ولا أدنس، استقام لك من كل ما قدمت رأي لعله أن يكون أقرب الآراء من صواب.

وأنا لست أقول فيه ما قالوا من أنه: «خبيث الاعتقاد قد خلع ربقة الإسلام» ولا أتكلف له التأويل والمحال، فقد قدمت الإشارة إلى بطلان المذهبين معاً.

ولكني ألاحظ أنه شاعر، والشاعر كثيراً ما يبيع دينه بدنيا غيره، فإن خرج على الإسلام في غلوه فما قصد إلى هذا الخروج قصداً، وإنما أراد الزلفى عند الممدوح، فأداه الغلو إلى الخروج[1].

وليس من الحق أن نحكم على آخرة رجل بنزوة كانت منه في الحداثة، أو حماقات صدرت في فترات من حياته. ومن ذا زعم أن أبا الطيب كان يعتقدها اعتقاداً حتى نجعله بها صاحب مذهب في الدين، وقد علمنا أن عقله لم يفرغ لهذا قط؛ فمن سره أن يجر النوابغ المشهورين إلى طائفة بالسلاسل والأغلال، يكثر بهم سوادها فما أراني مضطراً إلى شيء من هذا، وقد فرغ أهل البصر من هلهلة هذه الطريقة التي سلكها بعض المؤلفين

---

(١) ولكنه ـ كما سبق ـ يؤاخذ على هذا الخروج، لأنه قد صَرَّح به بقوله، دون إكراه من أحد.

الحديثين في كتب التراجم جهلاً وعصبية، فما هي إلى علم ولا إلى أمانة. والحكم على دين رجل أبعد منالاً من أن يكتفى فيه بورود اسم هذا الدين في كلامه، فما بالك إن كان ذكره له مجاراة أو حكاية أو رداً أو شتيمة.

وقد ذكر المتنبي في شعره هذه الديانات: المانوية، المجوس، اليهود، النصارى... إلخ أفيستقيم في هذا الزمان أن ينهض منتسب إلى العلم فيعد أبا الطيب مانوياً أو مجوسياً؟

إن العلم والأدب أمانة، فلينظر قارئ في كتاب ما ترك مؤلفه من عقله وأمانته وما أخذ.

أما أنا فأستطيع الآن بعد ما قدمت من بحث تحريت فيه بجهدي، ودعمته بما رأيت من برهان، أن أرسل كلمتي مطمئناً في دين أبي الطيب فأقول:

آمن لسانه وتخلف عمله، ولم يكن الدين همه يوماً من الأيام.

الفهرست